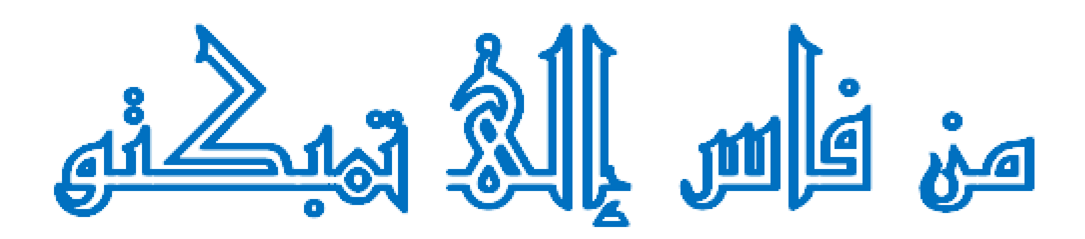
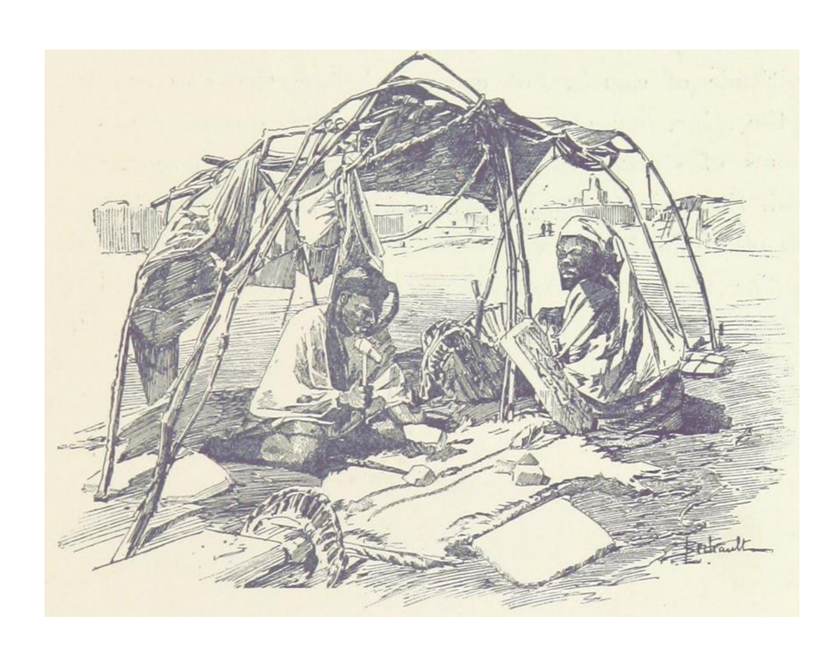


من فاس إلى تمبكتو

رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهوسة

(القرن الثامن عشر)



أملاها بالعربية: الحاج عبد السلام الشباني

حررها بالإنجليزية: جيمس غراي جاكسون

ترجمها: محمد عبد الغني

إرث
للنشر والترجمة

1442 هـ - 2020 م

من فاس إلى تمبكتو

من فاس إلى تمبكتو

رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهوسة

(القرن الثامن عشر)

أملاها بالعربية: الحاج عبد السلام الشباني

حررها بالإنجليزية: جيمس غراي جاكسون

ترجمها: محمد عبد الغني

إرث

للنشر والترجمة

من فاس إلى تمبكتو

رحلة الحاج عبد السلام الشباني إلى تمبكتو والهوسة (القرن الثامن عشر)

البريد الإلكتروني maghany06@gmail.com

العنوان الأصلي

An Account of Timbuctoo and Housa, Territories in the Interior of Africa, By El Hage Abd Salam Shabeeny; with Notes, critical and Explanatory

وصف تمبكتو والهوسة

وهي أقاليم في الداخل الأفريقي

للحاج عبد السلام الشباني

مع ملاحظات نقدية وتوضيحية

حرره

جيمس غراي جاكسون

الذي أقام ما يربو على ستة عشر عامًا ـ بصفة دبلوماسية وتجارية ـ في جنوب الساحل البربري وغربه.

لندن

1820

المحتويات



خريطة الطرق المؤدية إلى تمبكتو مرورًا بالصحراء

مقدمة المترجم

لرحلتنا هذه سمة فريدة؛ فهي رحلة عربية، في بلاد تُعدُّ عُمقًا طبيعيًا للمغرب العربي، قام بالرحلة رجل عربي، ثم أملاها ـ بعد سنوات عدة ـ بلسان عربي، غير أنه أملاها في أوروبا، وهو بين قوم من الإنجليز، فتلقفها مترجم منهم صاغها بلغتهم. ضاع الأصل العربي من فوره؛ إذ كان منطوقًا لم يُكتب، أما ترجمته الإنجليزية فوصلت إلينا مطبوعة ضمن مجلد ضمَّ عدة رحلات وكتابات جغرافية عن المغرب العربي والغرب الإفريقي.

ونحن إذ نترجم عن الإنجليزية هذا النص الذي نُطق به في الأصل بلساننا، إنما نرُدُّ بضاعتنا إلى رحالنا، وهي بضاعة مرّ اليوم على نشرها قرنان كاملان لم يُخرجها إلينا من الرِّحال أحد.

الرحالة:

صاحب الرحلة تاجر تطواني هو الحاج عبد السلام الشباني، الذي كان مراهقًا في الرابعة عشرة حين ارتحل مع أبيه إلى تمبكتو للتجارة، فقضى فيها ثلاث سنوات، ثم ارتحل إلى مدينة كبرى تبعُد عنها مسيرة عدة أيام إلى الجنوب الشرقي وتُدعى الهوسة[1]، فأقام فيها عامين ثم عاد أدراجه إلى تمبكتو ليمكث سبع سنوات أخرى، ثم يعود إلى تطوان وهو رجل في السابعة والعشرين.

بعد ذلك ارتحل الشباني إلى مكة للحج، فقضى في رحلته تلك عامين، حمل بعدهما لقب الحاج. وبينما هو في رحلة تجارية إلى هامبورغ، وقع في أسر سفينة رايتها روسية ورجالها إنجليز. كان ذلك إبان الحرب الروسية العثمانية (1787 ـ 1792)، فتذرع قبطان السفينة الروسية بأن قيصرة روسيا كاترين العظمى في حرب مع كل المسلمين، لا مع العثمانيين وحدهم. وفي ديسمبر 1789، وصلت السفينة إلى ميناء أوستند البلجيكي، حيث نجح قنصل بريطانيا في المدينة

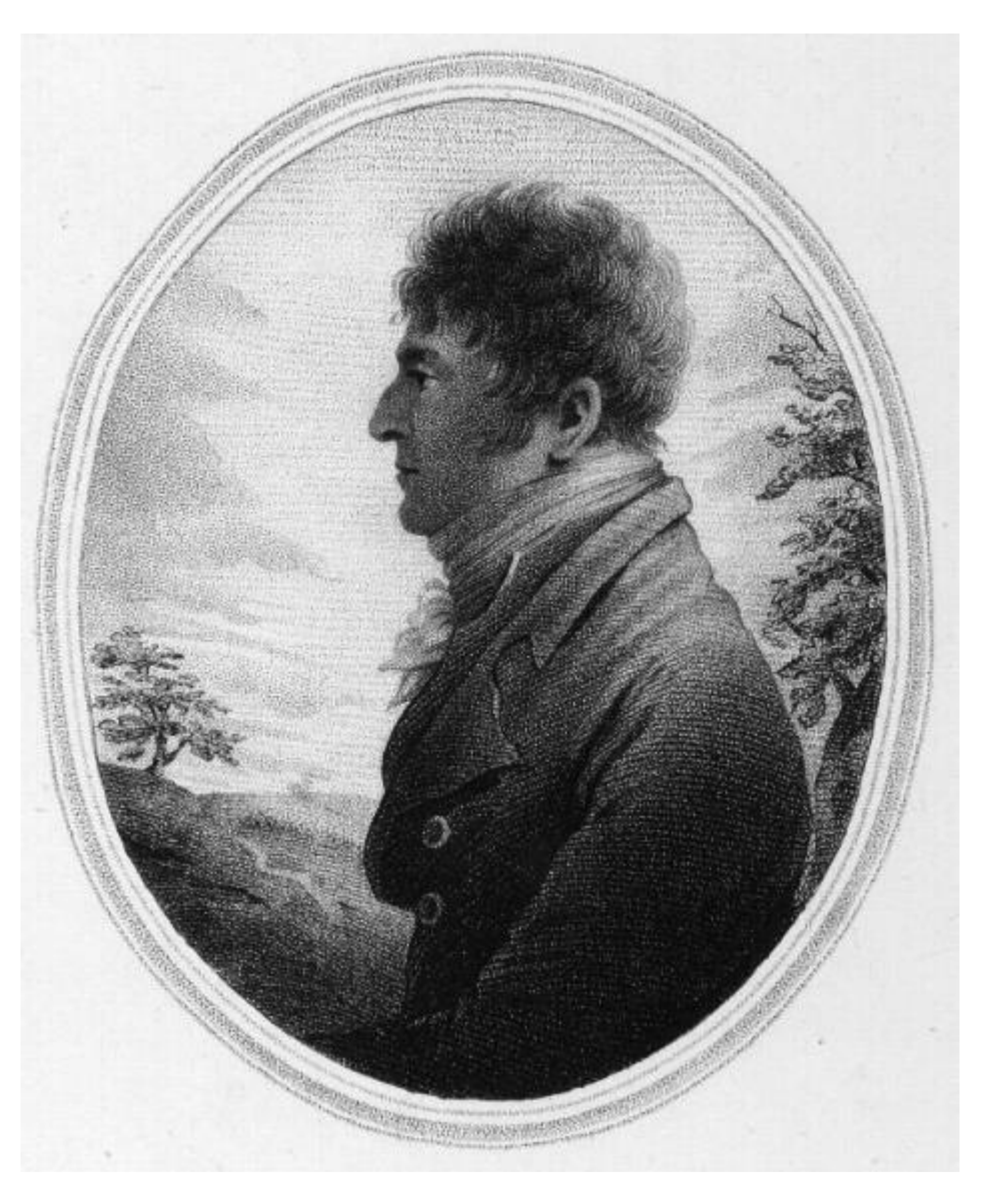
---

[1] يرجح لافجوي وريتشاردسون أن الهوسة من مدن قبائل الماراكا، انظر:

Lovejoy PE, Richardson D: Competing Markets for Male and Female Slaves: Prices in the Interior of West Africa, 1780-1850.*The International Journal of African Historical Studies*; Vol. 28, No. 2 (1995), pp. 261- 293.

[المترجم]

في إطلاق سراحه وسراح السفينة التي كانت تقله، فأبحرت السفينة ثانية، غير أن القبطان ادعى أنه يخشى وقوع سفينته في الأسر مرة أخرى بسببه، فأنزله في ميناء دوفر الإنجليزي. وفي إنجلترا أملى الشباني حكايته سنة 1792، ووصف مدينتي تمبكتو والهوسة، فكان هذا الكتاب، الذي تضمّن معلومات دقيقة تنم عن رحالة حاد الملاحظة، مع بعض المعلومات الاقتصادية وتفاصيل دقيقة عن أسعار السلع في تمبكتو والهوسة في زمن الرحلة، لعل سبب الاعتناء بها وبتفصيلها أن الرحالة والمحرر كان كلاهما في الأصل تاجرًا.



جيمس غراي جاكسون

محرر الكتاب:

أما محرر هذا الكتاب بالإنجليزية ـ ولا بد أن نميز في سياق الكتاب كلامه عن كلام صاحب الرحلة الأصلي ـ فهو جيمس غراي جاكسون، وهو تاجر بريطاني عاش في موگادور (الصويرة) أحد عشر عامًا امتدت من أواخر القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن التاسع عشر، وهو يذكر على غلاف الكتاب أنه عاش في المغرب ـ دبلوماسيًا وتاجرًا ـ مدة أربت على ستة عشر عامًا، ويورد في مقدمته تعريفًا بالحاج عبد السلام وكيف انتهى به الترحال إلى إنجلترا، كما يُثني على نفسه في المقدمة وبين ثنايا الكتاب وفي التعليقات التي تذيله بمعرفته التامة بإفريقيا والمغرب، وتشعُّب علاقاته فيهما، وإتقانه للغة العربية "لغة التجارة والسفر في إفريقيا"، التي تبادل بها المكاتيب ـ على حد قوله ـ مع السلاطين والأمراء والباشوات، ناعيًا على "الجالسين أمام المدفأة" تشكيكهم في بعض ما جاء في كتاباته الجغرافية من معلومات كان يؤمن بصحتها ودقة تفاصيلها.

لجاكسون كتابات أخرى عن جغرافية الشمال والغرب الأفريقيين. وهو كثيرًا ما يُحيل قارئ كتابه الذي بين أيدينا إلى كتاب آخر له عن المغرب عنوانه "وصف مراكش ومنطقة السوس"، الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1809 ثم أعيد نشره منقحًا ومزيدًا في العقدين التاليين عدة مرات، وله أيضًا كتاب قارن فيه بين عربية أهل المغرب وعربية أهل الشام.

كان جاكسون يذهب إلى أن بين نهري النيل والنيجر صلة ما، وهو لذلك كثيرًا ما يشير بلفظ "النيل" إلى نهر النيجر، فيذكر مثلًا أن أراضي تمبكتو "تُسقى بقنوات تُشق من النيل" وأن أسماك النيل في تمبكتو بالغة الجودة، وأنه "ليس فيما بين تمبكتو والنيل عرب"، وأن الشباني بلغ النيل بعد ثلاثة أيام [من خروجه من تمبكتو]، وركب في "النيل" مركبًا. وهو يُصرُّ على ذلك في كثير من كتاباته، ومن ذلك مثلًا رسالة إلى محرر "المجلة الشهرية" The Monthly Magazine في 25 يناير 1817، يردُّ فيها على مقال نُشر في المجلة كان كاتبه قد نفى وجود صلة بين النهرين، وهو ما وصفه كاتب المقال بالكلام المرسل، فكان جاكسون حادًا في رده، وواثقًا من صحة كلامه، ولم ينسَ في معرض رده ـ الذي نورد في السطور التالية مقتطفًا منه ـ أن يرُدّ وصف "الكلام المرسل" على صاحبه:

"رغم تأكيدي ـ الذي يوافقني فيه أفضل أهل السودان معرفة، وأرجحهم عقلًا ـ على وجود صلة مائية بين تمبكتو والقاهرة، فأنا لا أذهب إلى أن نيل السودان[2] يصبُّ في نيل مصر،

[2] وهو هنا يعني نهر النيجر [المترجم].

بل إلى أن له اتصالًا به، أو بنهر ما متصل بنيل مصر، وهو الرأي الذي يؤكده السيد هورنيمان، مستندًا إلى مصادر أفريقية".

ما بين إملاء الشباني للرحلة وبين نشرها في طبعتها التي اعتمدناها نحو ثلاثة عقود من الزمان، تنامى أثناءها الشغف الاستعماري الغربي بأفريقيا، فصار لزامًا أن يجمع الأوروبيون المعلومات عن أفريقيا من شتى المصادر، ولا سيما الإنجليز الذين كانوا يمنُّون أنفسهم بأن ينالوا من ثرواتها (ومن ثروات أفريقيا على العموم) بقدر ما نال الإسبان من ثروات أمريكا اللاتينية. وهنا أخرج جاكسون من جعبته رحلة الشباني القديمة ونشرها بعد كل هذه السنوات. كان الشغف بتمبكتو ـ أرض الذهب المجهولة ـ عظيمًا آنذاك، حتى إن جامعة كامبردج جعلت منها سنة 1829 موضوعًا لمسابقة شعرية فاز فيها الطالب ألفرد تنيسون (اللورد وشاعر البلاط البريطاني فيما بعد) بالميدالية الذهبية، بقصيدة ذات نزعة رومانتيكية جعل فيها تمبكتو مدينة أسطورية صنعها خيال الإنسان، مدينة غامضة "لا يُمكن سبرُ غورها"، وجعلها نظيرًا لمدينة إلدورادو الأسطورية التي يكسو الذهب كل ما فيها، ولجزيرة أطلانطس الخرافية الأفلاطونية. تغلغلت تمبكتو في اللغة الإنجليزية ذاتها فصار اسمها مرادفًا لأبعد مكان يمكن تخيله، على نحو ما نضرب نحن المثل ببلاد واق الواق، وصار الإنجليز يقولون للإشارة إلى طول المسافة: "من هنا إلى تمبكتو" أو "من تمبكتو إلى كالامازو" (وكالامازو هي مدينة في ولاية ميشيغان الأمريكية، لعل ربطها بمدينة تمبكتو الأسطورية في هذا المثل قد زاد من شهرتها قليلًا).

تمبكتو:

تقع مدينة تمبكتو اليوم في دولة مالي بالغرب الأفريقي، على الطرف الجنوبي للصحراء الكبرى، وبينها وبين نهر النيجر ـ الذي يقع إلى الجنوب منها ـ نحو 20 كيلومترًا. نشأت على أيدي الطوارق في أواخر القرن الخامس من الهجرة (مطلع القرن الثاني عشر الميلادي)، وكانت بادئ الأمر منزلًا موسميًا، ثم صارت مستقرًا وموطنًا ثابتًا[3]. وكما وصف هيرودوت مصر بأنها "هبة النيل"، رأى المتأخرون أن النيجر هو لتمبكتو وما حولها بمثابة النيل لمصر، فقيل إن

[3] تاريخ السودان للسعدي، ط. مدرسة باريس للغات الشرقية، ص 20، 21.

تمبكتو وما حولها من مدن ودول "هبة النيجر"، الذي يحوّل مساره إلى الشرق في منطقة تمبكتو، ليروي بلادًا لولاه لكانت مجدبة من الزرع والبشر[4].

ما لبثت تمبكتو بعد تأسيسها إلا قرنين من الزمان حتى صارت مدينة باذخة الثراء ومركزًا تجاريًا ذا شأن على طريق تجارة الملح والذهب. ومع أن أول ظهور لاسم تمبكتو في مصدر أوروبي كان في سنة 1373 (كان ذلك في خريطة قطلونية)[5]، فإن صيت تمبكتو لم يبلغ أوروبا على نطاق واسع إلا بفضل كتابات ليون الأفريقي[6] وغيره. أثار ذلك الصيت شهية الأوروبيين من مستكشفين ومغامرين ومرتزقة. وقد شحذ خيال الأوروبيين أكثر أن تمبكتو كانت عسيرة المنال، وأن كثيرًا من الرحلات الكشفية التي قصدتها اختفت بلا أثر، أو عاد أصحابها أدراجهم بخفي حنين قبل أن يبلغوا تمبكتو الموعودة! ولم تسجل كتابات الأوروبيين عن تمبكتو الغامضة حتى مطلع العقد الثالث من القرن الثامن عشر إلا حكايات الرحلات التي ذهبت إليها ولم تعد، بل ولم تبلغها من الأساس في أغلب الأحوال. ولما استطاع الفرنسي رينيه كاييه بلوغ تمبكتو في سنة 1830 ثم العودة منها حيًا (وكان أول أوروبي يعود حيًا بعد بلوغ تمبكتو)، كان الزمان قد أخنى عليها، وكان شأنها قد أفل، وعزها قد مضى، فكتب عن انطباعه الأول تجاه المدينة "لقد تشكّلت عندي فكرة مغايرة تمامًا عن عظمة تمبكتو وثرائها. لم يبدُ من المدينة من النظرة الأولى إلا كتلة من البيوت الفقيرة المبنية باللبِن".[7]

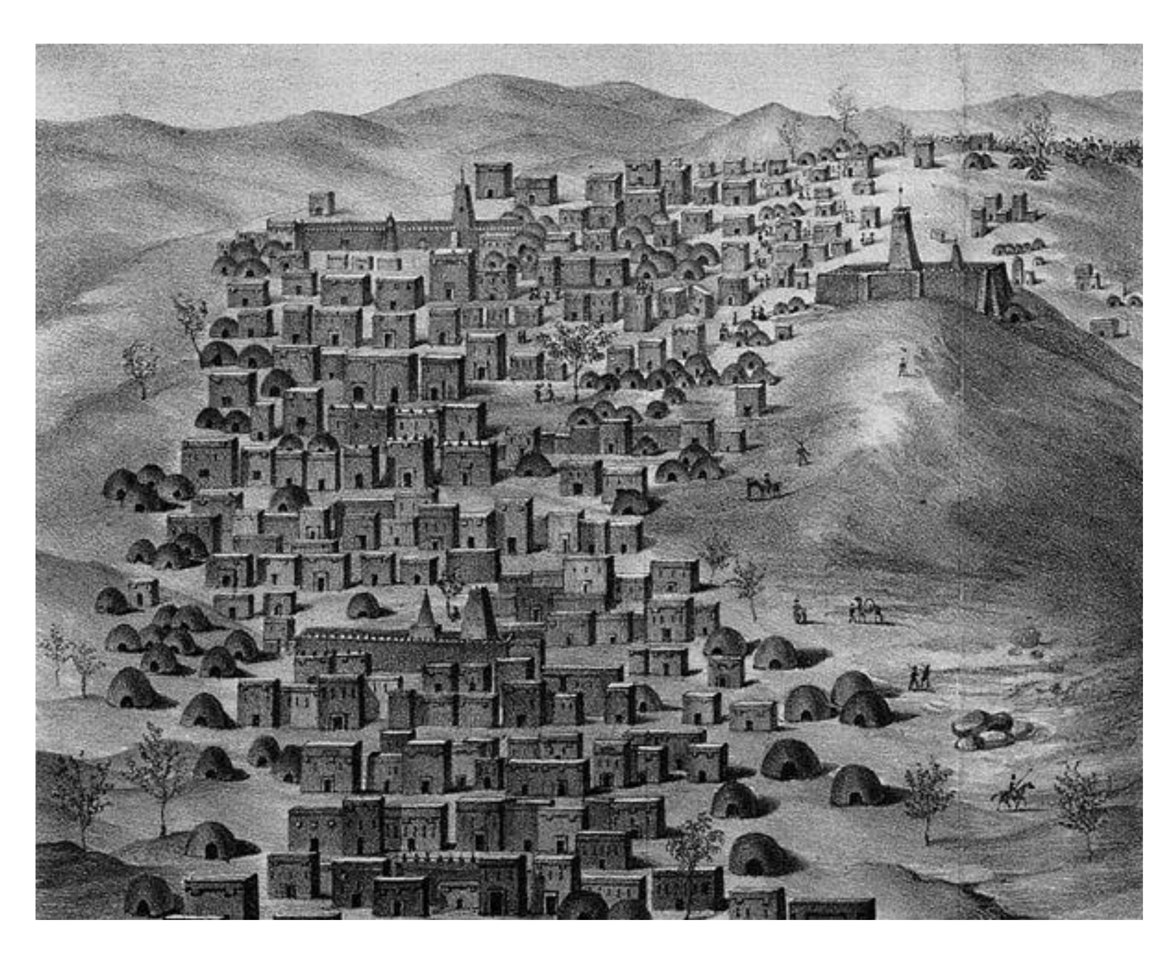
---

[4] **Saad EN (1983):** *Social History of Timbuktu: The Role of Muslim Scholars and Notables 1400–1900*, Cambridge University Press.

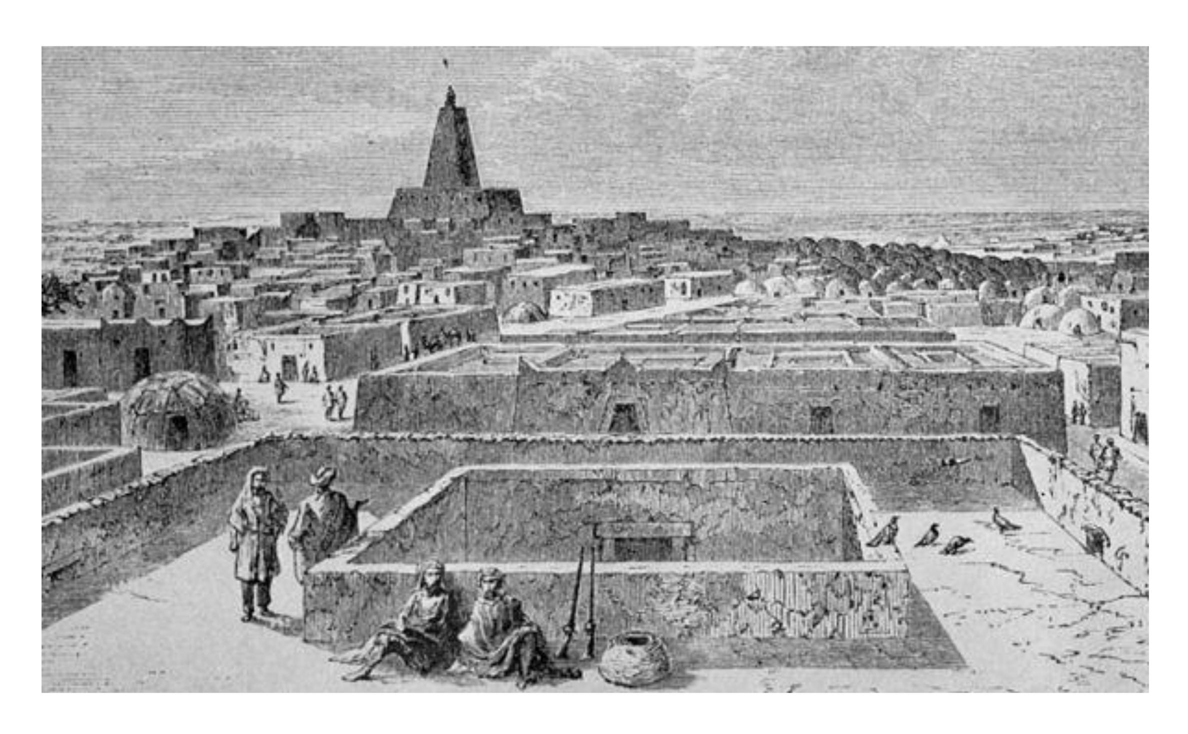
[5] **Surun I:** La découverte de Tombouctou: déconstruction et reconstruction d'un mythe géographique. *L'Espace géographique* 2002; 31:131-144.

[6] ***Leo Africanus (1600).*** *A Geographical Historie of Africa, written in Arabicke and Italian. Before which is prefixed a generall description of Africa, and a particular treatise of all the lands undescribed. Translated and collected by John Pory. London: G. Bishop.*

[7] **Caillié, René (1830):** *Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné, dans l'Afrique Centrale, précédé d'observations faites chez les Maures Braknas, les Nalous et d'autres peuples; pendant les années 1824, 1825, 1826, 1827, 1828* (2 tomes), Paris: Imprimerie royale.



تمبكتو كما رسمها رينيه كاييه سنة 1830



تمبكتو في منتصف القرن التاسع عشر كما رسمها هاينريش بارت[8]

الكتاب والترجمة:

لم تُطبع رحلة الشباني في كتاب مستقل، بل شغلت ـ مع مقدمتها ـ أربعًا وستين صفحة من مجلد أربت صفحاته على الخمسمائة، جمع فيه جاكسون أشتاتًا وشذرات ورسائل أصلية ومترجمة، قديمة ومعاصرة له، معظمها عن المغرب، مع مقالات عن الغرب الأفريقي وجغرافيته ولغاته.

النص الأصلي كثير الهوامش والإحالات (أكثر من مائة هامش، تنوعت ما بين الشرح والتوضيح والإحالة إلى كتاب جاكسون ذاته عن مراكش لاستيضاح أمر أو الاستزادة عنه)، وقد عمدت إلى تمييز ما أضافه المحرر الإنجليزي من إشارات وإحالات **بخط غليظ**، إلى جانب الإشارة بين معقوفتين [] إلى كونها للمحرر لا لصاحب الرحلة ولا لي أنا، مترجم الكتاب الذي بين أيديكم، أما تعليقاتي فجعلتها بالخط العادي وأشرت بين المعقوفتين إلى أنها تعليقات لمترجم النص.

---

[8] **Barth, Heinrich (1857):** *Travels and discoveries in North and Central Africa: Being a journal of an expedition undertaken under the auspices of H. B. M.'s government, in the years 1849–1855. (3 Vols)*, New York: Harper & Brothers. Google books: Volume 1, Volume 2, Volume 3.

مقدمة المحرر

نقل هذه المعلومات المتعلقة بتمبكتو والهوسة شخص مسلم من أبناء تطوان، أبواه معروفان شخصيًا للقنصل البريطاني السيد لوكاس[9]، اسمه السيد الحاج عبد السلام الشبّاني. يقول عن نفسه إنه رافق أباه إلى تمبكتو وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد أن أقام في تمبكتو ثلاث سنوات، واصل طريقه إلى الهوسة[10]، وبعد إقامة عامين في تلك الأخيرة، عاد أدراجه إلى تمبكتو، حيث مكث سبع سنوات متصلة، ثم قفل إلى تطوان.

ولما بلغ السابعة والعشرين، ارتحل من تطوان حاجًا وتاجرًا مع قافلة تقصد مصر ومنها إلى مكة والمدينة، ولدى عودته استقر في موطنه تطوان تاجرًا، ومنها أبحر في سفينة متوجهة إلى هامبورغ لشراء الأقمشة وغيرها من السلع اللازمة لتجارته.

---

[9] **سايمون لوكاس Simon Lucas:** هو دبلوماسي ورحالة إنجليزي، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتاريخا ميلاده ووفاته غير معروفين على وجه التحديد. أُسِر صغيرًا وعاش في المغرب ثلاث سنوات، ثم ذهب إلى جبل طارق، فأعاده حاكمها إلى المغرب نائبًا للقنصل البريطاني بها، ليقضي في إقامته الثانية بالمغرب ست عشرة سنة. وفي سنة 1785، عاد لوكاس إلى إنجلترا، حيث عُين مترجمًا شرقيًا بالبلاط الملكي. قام في سنة 1788 برحلة استكشافية إلى منطقة فزان في الصحراء الليبية لصالح رابطة تشجيع استكشاف مجاهل أفريقيا الداخلية (الرابطة الأفريقية)، وفي سنة 1793 عُيِّن قنصلًا لبريطانيا في طرابلس [المترجم].

[10] يرجح لافجوي وريتشاردسون أن مدينة "الهوسة" المشار إليها هي إحدى مدن قبائل الماراكا، وليست من ولايات قبائل الهوسا كما توهم روبن هالت في كتابه عن سجلات الجمعية الأفريقية الصادر سنة 1964 [المترجم].

Lovejoy PE, Richardson D: Competing Markets for Male and Female Slaves: Prices in the Interior of West Africa, 1780-1850. *The International Journal of African Historical Studies*. 1995; 28(2):261-293.

Hallett R (ed): *Records of the African Association, 1788-1831*. London, Thomas Nelson & Sons, 1964 (p. 114).

ولدى عودته من هامبورغ في سفينة إنجليزية، وقع في الأسر، وحُمل أسيرًا إلى أوستند[11] على متن سفينة طاقمها من الإنجليز إلا أنها تحمل الراية الروسية، وكان قبطانها يزعم أن سيدته الإمبراطورة[12] في حرب مع المسلمين جميعًا. وهناك أُطلق سراحه بفضل مساعي القنصل البريطاني السير جون بيترز[13] وأبحر من جديد في السفينة ذاتها، التي كانت قد حُرِّرت بدورها بفضل الوساطة ذاتها، ولكن لخوف القبطان ـ حقيقةً أو ادعاءً ـ من تعرضه للأسر مرة ثانية، فقد أُنزل على شاطئ دوڤر[14]، وصار عليه الآن[15] أن يعبر ـ امتثالًا لأوامر الحكومة ـ على متن سفينة ملكية تقرر إقلاعها خلال بضعة أيام.

يطرح السيد بوفوا ـ فيما يلي من المحاورات ـ الأسئلة، ويقوم السيد لوكاس بدور المترجم.

قضى الشباني عامين في رحلته من تطوان إلى مكة قبل أن يعود إلى فاس. وقد جنى بعض الأرباح من تجارته، التي تألفت من الحايك[16]، والطرابيش الحمراء، والبُلَغ، والقرمز،

[11] **أوستند** (وهي بالهولندية أوستنده) هي مدينة بلجيكية ساحلية تطل على بحر الشمال في مقاطعة الفلاندرز الغربية [المترجم].

[12] كانت على عرش الإمبراطورية الروسية آنذاك (1762 ـ 1796) الإمبراطورية كاترين الثانية (كاترين العظمى)، التي خاضت الإمبراطورية في عهدها حروبًا طويلة ضد الدولة العثمانية وخانيَّة القرم المسلمة الموالية لها [المترجم].

[13] **أكد السير جون بيترز ذلك شخصيًا [المحرر].**

[14] **دوڤر:** مرفأ على الساحل الجنوبي الشرقي لإنجلترا، يقع على مضيق دوڤر ـ أضيق جزء في القنال الإنجليزي ـ قبالة الساحل الفرنسي [المترجم].

[15] **في سنة 1795 [المحرر].**

[16] **الحايك (الحيك) هو لباس من القطن الخفيف أو الصوف أو الحرير عرضه نحو خمسة أقدام وطوله أربع ياردات، يُصنع في فاس، مثله مثل الطرابيش الحمراء التي تُصنع في الأغلب من أجود أصواف تادلة، التي تضاهي الأصواف الإسبانية، والتي تُنتج في الجهة المعروفة بهذا الاسم (لمعرفة موقعها انظر خريطة مملكة مراكش). وتُصنع البُلَغ كذلك في فاس ومكناس من الجلد الذي يُتّخذ من جلود الأغنام، أما القرمز فيُستورَد من إسبانيا، مع أن كثيرًا من جهات الساحل البربري الغربي تزخر بالصبير ـ وهو الشجرة التي تتغذى عليها حشرة القرمز ـ وخاصة في جهة السوس. ويكثر الزعفران في جبال الأطلس، في السوس الأدنى، ويستخدمه المسلمون في كثير من الأطعمة [المحرر].**

والزعفران، في مقابل الموصلي الهندي الناعم الذي تُتَّخذ منه العمائم، والحرير الطبيعي، والمسك والجبالية[17]، وهو بخور ممتاز يشبه العجينة السوداء.

حقق الشباني أرباحًا طائلة من تجارته في تمبكتو والهوسة، غير أن المال الذي اكتسبه لدى الزنوج[18] هو ـ على حد قوله ـ مال بلا بركة، يتبدد ولا تعود على مالكه فائدة، أما المال الذي يُحصّل في رحلة إلى مكة فهو مال مبارك، يصير ملكية دائمة.

ولدى عودته من مكة مع والده، استقر كلاهما في تطوان، ودرَجا على نقل الماشية والدواجن وغيرها إلى جبل طارق. وقد قضى والده سنوات عمره الخمس عشرة الأخيرة في جبل طارق، حيث توفي نحو سنة 1798. وكان قد وُلد في مكناس، وتعود أصول أسرته إلى قبيلة أولاد شبان[19] [20]، التي تمتلك البلاد الواقعة بين سانتا كروز[21] وواد نون. وقد اضطلعوا بنصب خيمة السلطان وحراسته. وهم قادرون على جمع أربعين ألف رجل، وكانوا أول من رافق مولاي أحمد الذهبي[22] في مسيره إلى تمبكتو.

وهو الآن يعد نفسه مستقرًا في تطوان، التي له فيها زوجة وأبناء. وقد ارتحل عنها منذ حوالي اثني عشر شهرًا بصحبة ثلاثة من أصدقائه قاصدًا هامبورغ (كما أسلفنا). وقد احتُجزوا في أوستند سبعة وأربعين يومًا، وأُسِروا في اليوم الثاني من رحلتهم، وأنزلهم القبطان الإنجليزي

---

[17] **تشبه الجبالية اللبان الشحري أو صمغ بنيامين (الراتنج الصمغي)، ويتخذ منه الأفارقة بخورًا [المحرر].**

[18] **لكونهم عُبّاد أوثان [المحرر].**

[19] أولاد شبان: بطن من بطون قبيلة أولاد عمران العربية الدكالية في المغرب [المترجم].

[20] **شبان هي (على الأرجح) قبيلة من العرب الهوارة، تمتلك السهول الحسنة والأراضي الخصبة الواقعة بين مدينة تارودانت وميناء سانتا كروز. وقد حدثت هجرة لقبائل المغافرة العربية التي تمتلك ما بين تارودانت وميناء مسّة. وتشغل مضارب مَن هاجر من عرب أولاد أبي السباع (الذين يُسمَّون في الخرائط بالعامية "ولاد بالسباع") مساحة شاسعة ما بين تومي ـ الواقعة على الساحل ـ وتارودانت. ويستوطن الساحل الواقع ما بين مسّة وواد نون قوم تجار من العرب والشلوح تزاوجوا فيما بينهم ويُعرفون بآيت با عمران. ويتوق هؤلاء القوم أشد التوق إلى أن يُفتتح في بلدهم ميناء، وقد أكد لي بعضهم شيوخهم أن على ساحلهم شبه جزيرة يصلح موقعها ليكون ميناء. وهذا الموقع يستحق الاهتمام من قِبَل أمم العالم البحرية والتجارية [المحرر].**

[21] سانتا كروز دو كابو داغوير Santa Cruz do Cabo de Aguer، هو اسم برتغالي كان يُطلق على مدينة أكادير في القرن السادس عشر [المترجم].

[22] **قاد أصغر أبناء السلطان مولاي إسماعيل الحملة المشار إليها نحو سنة 1727 ميلادية [المحرر].**

على شاطئ دوفر خلاف رغبتهم، وواصل طريقه إلى جبل طارق ومعه بضاعتهم، وكان ذلك في ديسمبر 1789.

القارة

ظلت قارة أفريقيا، التي أرهق استكشافها همة أوروبا (على النقيض من كل أنحاء العالم المعمورة الأخرى) كتابًا مغلقًا. وإذا كان هذا الكتاب قد فُتح في آخر المطاف، فنحن لم نتجاوز منه صفحة العنوان بعد.

يرجع كثير من الفضل إلى مساعي الرحالة. ولا مراء عند ذوي الألباب فيما تبديه الجمعية الأفريقية من نية حسنة في تشجيع البحوث العلمية في هذه القارة. لكن مباشرة هذه المهمة العظيمة والنجاح فيها يلزمهما ما هو أكثر من ذلك. لا أظن قط أن أسلوب الرحالة المنفردين سيكون ذا طائل. وما زالت خطة بعثة الميجور بيدي[23] والكابتن تاكي[24] تلقى معارضة أكثر مما تلقاه الخطة الفردية، ولديّ ما يبرر اعتقادي بأنه ليس من أحد لديه أدنى دراية شخصية بأفريقيا قد تراوده الآمال في نجاح تلك البعثات. لقد جهرتُ منذ عشرين عامًا بما استقرّ عليه رأيي: إن خير سبيل لتحصيل المعرفة بهذه القارة المهمّة هي المعاملات التجارية. وكلما مُنينا في البعثات الأفريقية بفشل تلو الآخر زاد رسوخ هذا الرأي عندي. إذا كنا ننشُد النجاح في هذا المسعى العظيم، فلا بد أن نسير خارج الطريق المرسومة ـ طريق الخطأ الذي يؤدي إلى خيبة الأمل ـ تلك الطريق التي قتلت كل مساعينا التي ينقصها التنسيق. لا بد أن ننفض صدأ ما مضى ونطرق دربًا لم تُطرَق من قبل قَط.

[23] قاد الميجور بيدي بعثة استكشافية إنجليزية إلى الغرب الأفريقي بدأت سنة 1815 وانتهت سنة 1821 [المترجم].

[24] جيمس هينغستون تاكي (1776 - 1816): هو رحالة بريطاني من أصل أيرلندي، كان نقيبًا بالبحرية الملكية البريطانية، وله رحلات استكشافية في منطقة البحر الأحمر وأستراليا، وقام في فبراير 1816 برحلة لاستكشاف نهر الكونغو والبحث في وجود صلة بين حوضي الكونغو والنيجر، فأوغل في نهر الكونغو من مصبّه، غير أنه اكتشف صعوبة سير السفن فيه لوجود الشلالات التي عُرفت فيما بعد بشلالات يلالا، وقد فقد تاكي رجال بعثته واحدًا تلو الآخر بسبب الحمى، قبل أن يقضي هو الآخر نحبه ـ للسبب ذاته ـ في بلدة مواندا الواقعة عند مصب نهر الكونغو في 14 أكتوبر 1816. وقد زادت رحلته ـ رغم فشلها ـ من اهتمام الغرب باستكشاف المنطقة [المترجم]

ألا تنقصنا روح الجماعة، التي هي لازمة وضرورية لكل المساعي العظيمة؟ ألا يُضحَّى بالصالح العام في سبيل تعظيم الذات والمصلحة الفردية. فلتضم المؤسسة الأفريقية[25] أموالها إلى أموال الرابطة الأفريقية[26]، ولتضُمَّا جهودهما إلى جهود تلك الجمعية. ولتسهم الشركة الأفريقية[27] بما لها من خبرات. فإذا اتحدت مصالح تلك الجمعيات جميعًا ـ وهي متفرقة، بل ومتنافرة أحيانًا ـ فسوف يكون لها أثر بالغ. ومن شأن اتحاد جهود تلك الجمعيات أن يصنع في عام واحد، في سبيل تمدين أفريقيا وفي إلغاء الرقّ، أكثر مما تصنع كل منها على حدة في عشرة أعوام كما هو حالها الآن. التآلُف يُنمِّي الأشياء الصغيرة[28]، وإذا نظر كلٌّ إلى مصالحه الخاصة فلا ننتظرنّ خيرًا عميمًا.

ولربما كان قد كُتِب لمساعي البرتغاليين والإسبان العظيمة قبلًا أن تُفلح في استعمار كل البقاع الصالحة من أفريقيا الوثنية وتنصيرها، لولا أن اهتمامهم بهذه الغاية الجليلة قد تحوّل إثر اكتشاف أمريكا واستيطانهم في البرازيل والمكسيك وغيرهما.

ولقد أقمت ما يربو على ستة عشر عامًا في الساحل البربري[29] الغربي والجنوبي، وهي أقاليم ظلت على تعامُل دائم مع جميع البلدان التي حاول الميجور هوتون[30] وهورنيمان[31]

---

[25] المؤسسة الأفريقية The African Institution هي كيان أُسس سنة 1807، بعد إلغاء تجارة الرقيق في بريطانيا، بهدف إنشاء "موطن صالح ومتحضر" للعبيد المحررين في سييرا ليوني [المترجم].

[26] الرابطة الأفريقية The African Association هو الاسم المختصر لما كان يُعرف برابطة تشجيع استكشاف مجاهل أفريقيا الداخلية، وهو نادٍ بريطاني أُسس سنة 1788 بهدف استكشاف الغرب الأفريقي ومنابع وجرى نهر النيجر. ويرتبط إنشاء هذه الرابطة ببداية عصر استكشاف أفريقيا [المترجم].

[27] الشركة الأفريقية، واسمها الكامل شركة التجار الأفريقية African Company of Merchants هي شركة بريطانية مرخصة عملت في منطقة ساحل الذهب (في غانا الحالية) في الفترة من 1752 إلى 1821 [المترجم].

[28] باللاتينية في النص الأصلي: *Concordia parvae res crescent* [المترجم].

[29] الساحل البربري The Barbary Coast هو مصطلح استخدمه الأوروبيون بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر للإشارة إلى المناطق الساحلية الوسطى والغربية من أفريقيا الشمالية (سواحل المملكة المغربية والجزائر وتونس وليبيا).

[30] كان الرحالة الأيرلندي الميجور دانييل هوتون (1740 - 1791) من أوائل الرحالة الأوروبيين الذين توغلوا في الغرب الأفريقي، حيث موّلت الرابطة الأفريقية بلندن رحلة له سنة 1790 انطلقت من مصب نهر غامبيا لاستكشاف المناطق النائية من ساحل أفريقيا الغربي، إلى جانب تحديد موقع مدينة تمبكتو ورسم خريطة لنهر النيجر. وقد تعرض هوتون في رحلته إلى العديد من المتاعب والنوازل كان آخرها اختفاؤه في الطريق إلى

وبارك[32] ورونتغن[33] وبيركهارت[34] وريتشي[35] وآخرون أن يستكشفوها. كنت وكيلًا دبلوماسيًا بالعديد من أمم أوروبا البحرية، مما عزز علاقاتي مع مختلف طبقات المجتمع في تلك البلدان.

تمبكتو، حيث يرجح أنه قضى جوعًا وعطشًا في الصحراء وهو في الطريق إلى مدينة تيشيت (في موريتانيا الحالية) [المترجم].

[31] فريدريش كونراد هورنيمان (1772 - 1801) هو مستكشف ألماني، ارتحل إلى أفريقيا سنة 1796 على نفقة الرابطة الأفريقية لاستكشاف المناطق المجهولة من الشمال الأفريقي، حيث بدأ دراسة اللغة العربية في جامعة غوتنغن ثم استكمل دراسته في مصر، التي شهد فيها غزو حملة نابليون بونابرت للبلاد، وفي سبتمبر 1798 التحق بقافلة من المغاربة العائدين من الحج، ودخل في جماعة من التجار الفزانيين الذين كانوا برفقة القافلة زاعمًا أنه تاجر مملوكي، ومسميًا نفسه يوسف، فوصلوا إلى واحة مرزق في 17 نوفمبر 1798، مرورًا بواحة سيوة ثم أوجلة. وفي مرزق مكث هورنيمان إلى يونيو 1799، قبل أن يسافر إلى طرابلس ثم يقفل إلى مرزق، التي جمع فيها الكثير من المعلومات عن المنطقة وعن شعوبها كان يوافي بها الرابطة الأفريقية بين الحين والآخر، قبل أن يغادرها مارًا بطرابلس إلى بلاد الهوسا [المترجم].

[32] مونغو بارك (1771 - 1806) هو جرّاح ورحالة اسكتلندي استكشف الغرب الأفريقي متوغلًا في الدواخل المجهولة بتمويل من الرابطة الأفريقية، وله كتاب عن رحلاته تلك نُشر سنة 1799 بعنوان "رحلات في داخل أفريقيا". قضى غرقًا أثناء هجوم شنه أفارقة على زورقه في نهر النيجر [المترجم].

[33] هاينريش رونتغن (1787 - 1813) هو مستكشف ألماني، كان واحدًا من أربعة تلامذة رشحهم العالم الألماني يوهان فريدريش بلومنباخ ـ الذي كان أستاذًا بجامعة غوتنغن ـ للرابطة الأفريقية بلندن لاستكشاف أفريقيا (الآخرون هم فريدريش هورنيمان وأولريخ زيتسن ويوهان لودفيغ بيركهارت)، وجميعهم قضوا نحبهم في أفريقيا. نزل رونتغن بمراكش سنة 1809 [المترجم].

[34] يوهان لودفيغ بركهارت (1784 - 1817) هو رحالة وجغرافي ومستشرق سويسري. تعلم في جامعتي لايبتزغ وغوتنغن الألمانيتين ثم درس اللغة العربية في جامعة كامبردج تمهيدًا للارتحال إلى الشرق برعاية الرابطة الأفريقية، حيث سافر من إنجلترا إلى حلب سنة 1809، وهناك تعمّق في الإسلام واللغة العربية متسميًا بالشيخ إبراهيم بن عبد الله، وبعد عامين قضاهما في حلب، اعتزم الرحيل إلى القاهرة في مطلع سنة 1812، واتصل بوالي مصر محمد علي باشا، ورافق حملته إلى الجزيرة العربية، حيث مكث بين مكة والمدينة في الفترة من 1814 إلى 1816، ودوّن كتابًا عن هذه الرحلة أسماه "رحلات في شبه الجزيرة العربية" (له ترجمات حديثة عدة إلى اللغة العربية). وفي طريق عودة بركهارت إلى مصر، مرض في ينبُع، فتحامل على نفسه حتى بلغ سيناء، حيث مكث شهرين دوّن فيهما الكثير عن أهلها وقبائلها، ثم دخل مصر وتوفي فيها بالزُّحار في 15 أكتوبر 1817، ودُفن في مقابر الصوفية بباب النصر، في قبر بُني عليه فيما بعد مبنى مربع ذو قبة مثلثة ومدخل بسيط بلا زخارف كُتب عليه "هنا يرقد الرحالة السويسري الشيخ إبراهيم المهدي. وُلد عام 1199 هـ في لوزان، تُوفي عام 1232 هـ في القاهرة" [المترجم].

وقد أجدتُ لغة التجارة والسفر في أفريقيا (العربية) إجادة تامة، وتبادلت المكاتيب مع السلاطين والأمراء والباشوات بهذه اللغة، وكانت علاقاتي التجارية متشعبة للغاية، ومنها علاقاتي مع جميع ذوي الشأن من التجار الذين يتاجرون مع تمبكتو وغيرها من بلدان السودان. وقد أتاحت لي إقامتي في أكادير أو سانتا كروز، في السوس، فرصًا سانحة للحصول على المعلومات بشأن التجارة مع السودان ومع الداخل الأفريقي. ولقد مكنتني الإقامة الطويلة في البلد والعلاقات الواسعة، من تمييز مَن هو أهل لإمدادي بالمعلومات التي أنشُدها ممن هو غير أهل، وذلك على وجه التحقيق. وقد سنحت لي فرص مواتية لاستقصاء الدوافع التي قد تحدو بأي امرئ لخداعي، كما كان لديّ الوقت والفرص السانحة لاستقصاء أخلاقهم، وللتيقُّن من السبل التي ينتهجونها في مسلكهم هذا. ومع امتلاكي موارد المعلومات هذه مجتمعة، كيف عساي أن أفشل في الحصول على المعلومات الصحيحة والموثوق بها عن الداخل الأفريقي؟ ورغم ذلك فقد أثار نقادنا الجالسون أمام المدفأة الشكوك حول وصفي للنيلين، واستبدلوا به معلومات غير مترابطة مصدرها رحالة آخرون لا ريب أنه لم تتوفر لهم الفرص التي توفرت لي للحصول على المعلومات. ولكن ـ على الرغم من هذا التشكُّك غير المبرَّر، فإن وصفي لاتصال نيلي أفريقيا أحدهما بالآخر ما زال يلقى المزيد من التأكيد من قِبَل جميع الرحالة إلى أفريقيا. ولذا فإن "الزمن (وهذا على لسان كاتب ضليع وأريب[36]) الذي هو أكثر غموضًا في مساره من النيل، وفي نهايته من نهر النيجر" يكشف الستر عن كل هذه الأمور شيئًا فشيئًا، ولذا فقد بدأت في الاعتقاد بأن النقاد المذكورين آنفًا سيعجزون عن التمسُّك بفرضياتهم النظرية طويلًا".

---

[35] الدكتور **جوزيف ريتشي** (نحو 1788 - 1819) هو جراح ومستكشف إنجليزي، رافق الضابط البحري البريطاني جورج فرانسيس ليون (1795 - 1832) في رحلة لاستكشاف مجرى نهر النيجر وتحديد موقع مدينة تمبكتو، غير أن التعقيدات الرسمية ونقص الدعم والتمويل أضرّا بالبعثة فلم تجاوز ـ بعد نحو عام ـ مدينة مرزق، عاصمة إقليم فزان، حيث سقط كلا الرجلين صريعًا للمرض، ولم يلبث ريتشي أن لقي حتفه ودُفن في مرزق، أما ليون فقد واصل طريقه، لكنه لم يتوغل كثيرًا، وما فتئ أن عاد إلى طرابلس بعد عام آخر وقد باءت مهمته بالفشل الذريع [المترجم].

[36] **انظر**

Rev. C. C. Colton's Lacon, sect. 587. p. 260, 261.

[المحرر]

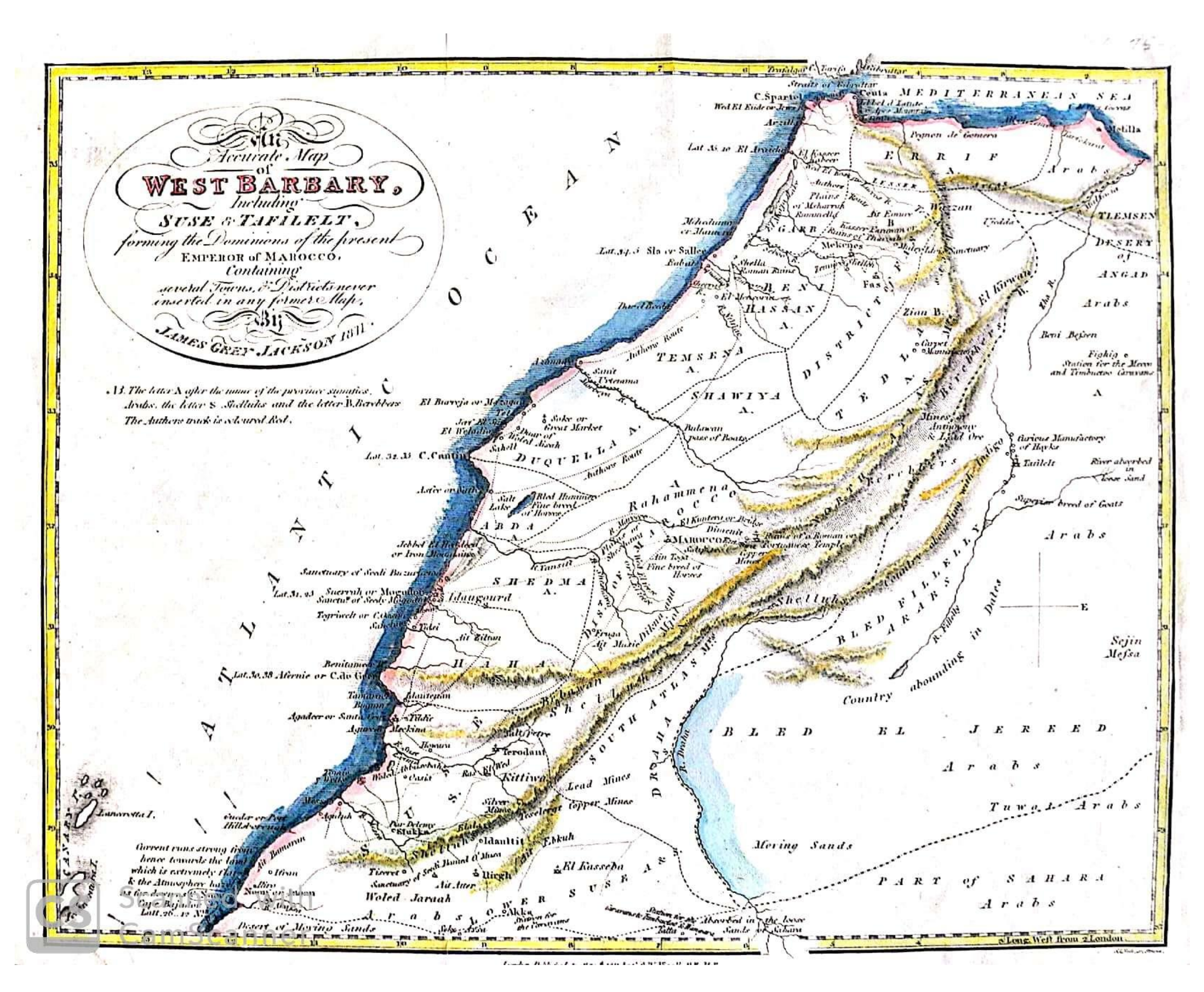
ولقد بعث فيّ ما كان يتمتع به المأسوف عليه للأبد بركهارت ـ على نحو رفيع ـ من مواهب وفطنة منقطعي النظير وجَلَد ودراية باللغة العربية، وغير ذلك من المؤهلات الأساسية اللازمة للرحالة في أفريقيا، أكبر الآمال في نجاحه في مهمته الشاقة، إلى أن اكتشفت ـ وأنا أقرأ رحلاته ـ أنه كان فقيرًا ومُحتَقَرًا رغم كونه مسلمًا.

عديدة جدًا هي الأسباب التي تجعلنا ندرك أنه كان موضع شكوك، إن لم يكن المسلمون قد اكتشفوا أمره، وإلا ما استُبعد من موائدهم ومجتمعهم. فالمسلمون لا "يتشاطرون الطعام" قطّ مع من يشكُّون في مخادعتهم، ولا يأبون قطّ أن يتقاسموا الطعام مع مسلم، ما لم يكن قد داخَلَهُم شكٌّ في خيانته أو خداعه. وهذا مبدأ سائد بينهم جميعًا إلى حدّ جعل الدهاة والماكرين يحتالون على البدو مختلف الحيل تحت ستار حسن الضيافة، على نحو ما يُحتال به في البلدان المسيحية تحت ستار الدين! ولا يسعُني إذن ـ والحال كما أسلفت ـ إلا أن أظن أن إسلام بركهارت كان محل شكوك بالغة، وأن رفاقه كانوا لا ينتظرون إلا الفرصة السانحة في الصحراء كي يذيقوه جزاء خداعه.

وقد كان لما لقيه كتابي في وصف مراكش من قبول حسنٍ للغاية من الجمهور البريطاني، والتي يتأكد ـ يومًا بعد يوم ـ صحة كثير مما ورد فيه رغم ما لقيه من تشكيك وقت نشره، إسهام لا يستهان به في إخراج الصفحات التالية، التي يمكنني أن أعلن بكل أمانة أن الحقيقة كانت رائدي فيها، وأنني لم أتنازل عنها قطّ سعيًا إلى مطمح أو مفخرة أو مطمع أو غير ذلك من الأهواء.

وإنه ليطربني أن أرى المثقفين وقد شرعوا في استخدام طريقتي في كتابة الأسماء الإفريقية، وقد صاروا مؤخرًا يكتبون Timbuctoo بدلًا من هجائها العامي القديم Tombuctoo، إلا أنهم ظلوا مترددين في استخدامه ما يربو على عشر سنوات. وأتوقع ـ في ظرف عشر سنوات مقبلة ـ أن تحل Fas محل Fez، و Marocco محل Morocco، لأن هجاءها هكذا في اللغات الأصلية للبلاد التي تُعد المدينتان من مدنها الكبرى. ولقد رأيت ـ منذ نُشر وصفي لمراكش ـ اختلافًا كثيرًا في هجاء الكلمات العربية عند ذات المؤلف (بل لقد ارتكبت أنا أيضًا هذا الخطأ)، لكني اتخذت لنفسي في هذا العمل نهجًا لتصحيح هذا الخطأ الشائع في هجاء الكلمات الشرقية، وهو نهج أظنُّ أن على كُلِّ دارس للشرقيات أن يتبعه بوصفه الطريقة الصحيحة الوحيدة لتمثيلها صوتيًا في الإنجليزية، أي بكتابتها وفق هجائها الأصلي في العربية تمامًا، فتكون *gr* (وليس *gh* التي يوصي بها ريتشاردسون) تمثيلًا للحرف الحلقي العربي "غ"، و*kh* تمثيلًا للحرف الحلقي "خ".

ملاحظة: علينا أن نتوخى الحذر فلا ننسخ هجاء الأسماء الشرقية أو الإفريقية من اللغة الفرنسية، وهو ما جرت عليه العادة في أحيان كثيرة جدًا، وذلك رغم أن نطقهم للحروف الأوروبية يختلف تمامًا عن نطقنا نحن لها.



خريطة رسمها جيمس غراي جاكسون وعنونها "خريطة دقيقة للساحل البربري الغربي، وتشمل منطقتي السوس وتافيلالت، وهو ما يمثّل البلاد الخاضعة لسلطان مراكش الحالي"

وصف رحلة من فاس إلى تمبكتو

قام بها الحاج عبد السلام الشباني

نحو سنة 1787 ميلادية

دائمًا ما يُفضِّل المغاربة السفر في فصلي الربيع والصيف؛ لأنهم يعانون كثيرًا من برد الصباح القارس في الشتاء. وهم يغادرون فاس قاصدين تمبكتو في مطلع أبريل في الأغلب، ويغادرون تمبكتو قافلين إلى فاس في شهر يناير.

وترتحل قافلة مكة من فاس في مطلع مارس.

ويستأجر المغاربة الجِمال في سفرهم من مرحلة إلى أخرى. وقد كانت أول مراحل سفر الشباني من فاس[37] إلى تافيلالت، وتستغرق عادة نحو عشرين يومًا.

وكانت أُجرة الجَمَل الواحد تتراوح بين عشر دوقات واثنتي عشرة دوقة[38]، بسعر خمسة شلنات للدوقة؛ ولكون هذا الطريق مارًا في بلاد شديدة الوعورة، ولكون السفر بالغ السوء، كانت الأجرة باهظة بما يتناسب مع ذلك. وكان كل جمل يحمل ما بين أربعة وخمسة قناطير[39]، فالإبل في هذه البلاد قوية وبالغة الضخامة[40].

ومدينة تافيلالت هي ملتقى جميع التجار الذين يتوجهون إلى تمبكتو[41].

---

[37] **وهي رحلة في طرق ملتوية وعرة عبر جبال الأطلس، حيث ينزلون ببقاع تُغري المسافر، ولذا يستغرق قطعها وقتًا أطول مما يُتوقع لمسافة كهذه [المحرر].**

[38] الدوقة ducat: هي عملة من الذهب أو الفضة شاع استخدامها في المعاملات التجارية في أوروبا من العصور الوسطى المتأخرة إلى مطلع القرن العشرين، وكان دوقة البندقية الذهبية (الذهب البندقي) تحظى بقبول عالمي واسع، وتُعرف في العالم الإسلامي باسم البندقي أو الذهب البندقي أو الدينار الأفرنتي. سكّ المولى إسماعيل البندقي الذهبي في المغرب الأقصى لإقرار الاستقرار الاقتصادي [المترجم].

[39] القنطار أو السنتال (وزن المائة): هو وحدة موازين قديمة قُدّرت في نظام وحدات القياس الإمبراطوري بمائة واثني عشر رطلًا، أي نحو 50.8 كيلوجرامًا [المترجم].

[40] **تساوي أجرة الحمل هذه بالإبل من فاس إلى تافيلالت 55 شلنًا إسترلينيًا للجمل، أي بنسًا ونصف البنس للميل لكل جمل، وفارثنغًا وثلث الفارثنغ للقنطار الواحد من البضائع في الميل الواحد [المحرر].**

[41] **هذا فيما يتعلق بمن يرتحلون من البلاد الخاضعة لسلطان مراكش إلى الشمال من نهر أم الربيع، الذي يُعرف بالغرب، أو القسم الشمالي الغربي [المحرر].**

لا يضم إقليم تافيلالت أي مدن، بل يزخر بالحصون ذات الجدران المشيدة باللبِن[42] [43]، التي يطلق عليها الأهالي اسم "القصر"، والتي تضم جنباتها ثلاثمائة إلى أربعمائة أسرة. ويقام في هذه الحصون سوق عام كل أسبوع، يبتاع السكان منه المؤن وغيرها.

وأهل تافيلالت من نسل الأشراف[44] أو أمراء مراكش، وهم بذلك ينتسبون إلى العائلة السلطانية.

كان منتهى مرحلة الشباني التالية في درعة[45]، التي بلغها في ستة أيام. وكانت تكلفة الجمل الواحد نحو ستّ دوقات، أي ثلاثين شلنًا إسترلينيًا. وتزخر جهة درعة بالتمر الصلب الصغير[46]، وهو حسنٌ جدًا، ويبلغ ثمن حِمل البعير من هذا التمر ما بين أربعة دراهم وستة دراهم (ما يعادل شلنين إلى ثلاثة شلنات إسترلينية)[47].

وجهة درعة أكبر من جهة تافيلالت، إذ يبلغ محيطها مسيرة أربعة أيام أو خمسة. وأهل درعة شديدو السُّمرة[48]، ويقترب لونهم من السواد. وتكثر الحصون في هذه المنطقة كما هو الحال في تافيلالت.

---

[42] تُصنع هذه الجدران اللبنية في قوالب، وتُعرف طريقة تشييدها بالطابية. انظر وصف جاكسون لإمبراطورية مراكش إلخ، الطبعة الثانية أو الثالثة، صفحة 298 [المحرر].

[43] يصف جاكسون ـ في المرجع المشار إليه في الحاشية السابقة ـ طريقة تشييد الجدران بقوله: "توضع ألواح من الخشب على جانبي الجدار مدعمة بأوتاد مغروسة في الأرض أو مربوطة بأوتاد أخرى تُوضع بالعرض مقابل الجدار، ثم يُملًا الفراغ الذي يتخللها بالرمل والطين والكلس، وتُضرب بمطارق خشبية كبيرة حتى تصير صلبة ومتماسكة، ثم تُترك القوالب يومًا أو يومين، ثم ينزعونها وينقلونها إلى موضع أعلى إلى أن يفرغوا من الجدار، الذي يجعلون ارتفاعه في الغالب ثماني أذرع أو تسعًا" [المترجم].

[44] ومن هنا عُرف باسم "البلد الشريف"، أي بلد الأمراء [المحرر].

[45] جهة تقع عند سفوح جبال الأطلس في جنوب مراكش. انظر خريطة الساحل البربري الغربي في وصف جاكسون لإمبراطورية مراكش إلخ، ص 1 [المحرر].

[46] يطلق الأهالي على هذا التمر اسم بوسكري (بوذكري)، وبه كمية من العصارة السكرية أكثر مما في أي نوع آخر من التمور. كما تُنتج هذه الجهة أيضًا تمرًا يسمى بوطيوب، وهو أفضل ما يُثمر من التمور، ويسمى "سلطان التمر"، ولا يُعامَل كسلعة تجارية بل يُهدى إلى علية القوم، ويبلغ سعره نحو ضعف سعر أي نوع آخر. وأكثر الأصناف استخدامًا في التجارة الخارجية هو تمر تافيلالت المسمى "أدمو"، الذي يبيعه البقالون في لندن. إلا أن هذا النوع يُعَدُّ طعامًا رديئًا للغاية ولا يأكله الفيلاليون ـ أي سكان تافيلالت ـ قط، بل تُغذى به الإبل. وجهة تافيلالت غنية بمختلف أنواع التمور، التي لا يقل عددها عن ثلاثين نوعًا مختلفًا. ومساحات بساتين النخيل التي يمتلكها أشراف تافيلالت شاسعة المساحة، حتى أن الغلة السنوية لبستان واحد قد تباع بألف دولار، أي 220 جنيهًا إسترلينيًا. ويبلغ سعر حمل البعير المكون من ثلاثة قناطير نصف دولار، أي خمسة دراهم [المحرر].

[47] الدرهم هو عملة فضية، تعادل العشرة منه دولارًا مكسيكيًا واحدًا [المحرر].

[48] ولونهم أشد سمرة من لون النحاس الجديد، ولكنهم ليسوا بالسود. ويمكن مقارنة لونهم بلون الماهوجني القديم، مع لمسة من السواد. ويُضرب المثل بأهل درعة في الغفلة [كذا] [المحرر].

وليس للقوافل ـ خلافًا لما جرت عليه العادة عند الرحلة إلى مكة ـ شيوخ أو رؤساء[49]. لا رئيس للقافلة فيما بين فاس وتافيلالت، ولكن وجود قلة من الرجال المتقدمين في السن والثراء والمنزلة في القافلة جعل توجيه القافلة وإدارتها خاضعَين لعنايتهم.

وبعد تافيلالت ـ وهي كما أسلفنا بلد الأشراف ـ يقود القافلة أحد التجار من الأشراف المنضوين فيها، والذين يحاطون دائمًا بتبجيل بالغ، إلى أن تصل إلى تمبكتو. تتنامى القافلة كلما مضت قُدُمًا؛ فهي تكون في فاس مؤلفة من نحو ثلاثين أو أربعين جملًا، وفي درعة من ثلاثمائة إلى أربعمائة جمل. على مسيرة ثلاثة أيام من درعة، حفروا الأرض منقّبين عن الماء، وفي صباح اليوم التالي بلغوا الصحراء الكبرى، وهي ـ في الأيام العشرين الأولى ـ بيداء رملية منبسطة كاليمّ. وحين ينصب الناس خيامهم في هذه الصحراء ليلًا، يصير عليهم أن ينفضوا الرمل عنها مِرارًا وإلا ردمها الرمل قبل حلول الصباح.

بعض هذه الصحراء صلد لا تسوخ فيها الجِمال، وبعضها الآخر رمله متحرك جدًا يُرهق الجمال إرهاقًا شديدًا. وتهتدي القوافل في السفر بالنجوم ليلًا، وبالشمس نهارًا، وفي بعض الأحيان برائحة الثرى الذي يأخذون حفنًا منه بأيديهم. يظلون بعد دخولهم هذا القفر ـ وطيلة الأيام العشرين الأولى ـ بلا ماء، وهنا يجب أن تحمل القافلة الماء في جلود الماعز[50]، إذ لا يُرتجى أن يُعثر على قطرة منه إن نُقِّب عنه. ولذا يُستخدم نحو ثلث الإبل في حمل الماء، ومع حمل الإبل لهذه الكمية، فهي كثيرًا ما تُترك بلا ماء لثلاثة أيام أو أربعة. وهم لا يستخدمون البغال في هذه المرحلة من السفر، إذ لا يجدون الشيح[51] ولا النبات الشائك الشائع للغاية في صحارى أفريقيا.

ويسكن البلدان المتاخمة لهذه الصحراء إلى اليمين وإلى اليسار طائفة من العرب الرُّحَّل، على مسافة ثلاثة أيام أو أربعة من السبيل الذي تنتهجه القافلة، وهي بلاد يقال إن بعضها سهل وبعضها تلال وعشبها شحيح وشجيراتها قليلة، وعندما تقضي ماشية هؤلاء العرب على ما ينبت في بقعة ما، ينزح مالكوها إلى بقعة أخرى. ومع أن القافلة كانت مكونة من نحو أربعمائة رجل تامّي السلاح، فقد التمست طريقها في ناحية غير مطروقة من الصحراء خوفًا من غارات العرب. وأشد الرياح حرارة هي تلك التي تهبّ مما بين الشرق والجنوب الشرقي وتُعرف بالسَّموم[52]،

[49] **يكون الشيخ الأكبر، أو الرئيس العام للقافلة، في عامة الأحوال شريفًا أو أميرًا [المحرر].**

[50] **يسمي العرب جلود الماعز هذه ـ حال احتوائها على الماء ـ بالقِرَب، ومفردها قِربة [المحرر].**

[51] **الشيح هو الشويلاء، والنبات الشائك المشار إليه هو الآس الصحراوي [المحرر].**

[52] **السموم أي الريح الحارة. انظر وصف هذه الريح الغريبة في وصف إمبراطورية مراكش إلخ لجاكسون، الطبعة الثانية أو الثالثة، ص 283 و284 [المحرر].**

وألطفها ما يهب مما بين الغرب والشمال الغربي. ويلجأ المسافرون إلى الزبد المسال للتغلب على ما يجدونه من جفاف شديد في الصحراء[53].

وبعد عبور هذه الصحراء التي تمتد مسيرة عشرين يومًا، يبلُغون بلدًا مختلفًا في مظهره، به بقاع خصيبة (تُسمى الواح)[54] [55]. وهنا يجدون السدرة[56]، وهي نوع من الآس البري، بوفرة كبيرة. ويسمي الأهلون هذا النبات بالغيلان[57]، ويقارب ارتفاعه قامة رجل، وتتغذى عليه الإبل. وتوجد بين هذه الشجيرات نزر يسير من العشب في بعض المواضع. وهم يصادفون في هذه الجهة من الصحراء طبقات كثيرة من الحصى. ومع أن السطح في عمومه رملي، فهم يجدون على عمق ثماني بوصات أو عشر تربة ضاربة إلى الصفرة أو الحمرة، وعلى عمق أربعة أقدام بعدها نوعًا آخر من التربة مختلف ألوانه، ولكنه في الأغلب مائل إلى اللون البني، ثم يجدون الماء على عمق نحو خمس أقدام أو ستّ، وهو ينبثق في بطء شديد، ثم تجد في قاع هذا الماء رملًا فاتح اللون. والماء تارة ما يكون حلوًا، وتارات يكون ملحًا، ويغلب عليه أن يكون دافئًا. ويبلغ طول هذه الصحراء المذكورة آخرًا نحو عشرين يومًا، وهي سهل شاسع لا جبال فيه. ولا يوجد في هذه الجهة أي عرب، لكن البلاد الواقعة عن يمين الطريق وعن يساره، لمسافة ثلاثة أيام إلى ثمانية، يقطنها العرب، الذين يسودهم رؤساء (شيوخ) منهم، ويحظون باستقلال تام.

لا يصادفون في المسافة بين أقّا[58] وتمبكتو ـ وهي مسيرة ثلاثة وأربعين يومًا ـ أشجارًا، عدا السدرة، ولا أنهارًا، ولا مدنًا، ولا مساكن. وتبلغ أجرة الجمل من درعة ـ وهي بلدة تكثر فيها

---

[53] **وهو زبد قديم يوضع أيامًا عديدة في "مطمور"، أو حفرة تحت الأرض ويسميه عرب تلك الصحارى البُدرة، وتُعزى إليها فوائد عديدة إذا بلغت حدًا معينًا من القِدَم. وإذا ابتُلعت منه القدر القليل، فسرعان ما ينتشر في البدن [المحرر].**

[54] **الواح: يُنظر الشرح المفصّل لهذا المصطلح في وصف جاكسون لإمبراطورية مراكش، الطبعة الثالثة، صفحة 283 [المحرر].**

[55] يصف جاكسون الواحات ـ في المرجع المشار إليه في الحاشية السابقة ـ فيقول إنها بقاع خصيبة مأهولة ذات زرع، منتشرة في الصحراء انتشار الجُزُر في المحيط، وفيها يستقي الناس ويأكلون ويستجمُّون ويعوّضون من الإبل ما مرض أو هزُل [المترجم].

[56] **السدرة: هو اسم يطلق على شجيرات شوكية مختلفة الأنواع [المحرر].**

[57] شجر الغيلان ـ أو أم غيلان ـ هو شجر السَّمُر، وهو نوعٌ من جنس السَّنط من الصيلة القرنية، والطلحُ هو ما عَظُم من شجر السَّمُر. وكان شجر الغيلان مقدسًا عند العرب الجاهليين لكونه عندهم مسكنًا للأرواح [المترجم].

[58] أقّا: هي واحة من أقدم واحات الجنوب الشرقي للمملكة المغربية. تقع اليوم ضمن إقليم طاطا الحدودي. وكانت طريقًا للقوافل التجارية بين المغرب وبلدان أفريقيا [المترجم].

الجِمال ـ إلى تمبكتو ما بين ستة عشر دوقة وإحدى وعشرين دوقة[59]. وقطع رحلة طويلة كهذه مقابل تكلفة زهيدة كهذه مرجعه وفرة الجِمال في درعة[60]. وعادة ما تضم القافلة ما بين ثلاثمائة وأربعمائة من الرجال، يفضل كثير منهم المشي على حركة الإبل المضطربة

موضع مدينة تمبكتو

إلى الشرق من مدينة تمبكتو غابة كبيرة بها من الأفيال الكثير. والأخشاب هنا بالغة الضخامة. وتتميز الأشجار التي على أطراف الغابة بأنها ذات لونين: فالجانب الذي يواجه شمس الصباح أسود، والجانب المقابل أصفر اللون. وليس على بدن الشجرة أفرُع ولا أوراق، بل تنمو الأوراق ـ التي يلفت كِبَر حجمها الأنظار ـ على قمتها فقط، بحيث تبدو الشجرة منها على البُعد كسارية السفينة وما استدار من أعلاها. وقد رأى الشباني في إنجلترا أشجارًا أعلى من تلك. والأشجار داخل الغابة أصغر منها على أطرافها. وليس ثمة أشجار تشبه تلك التي في بلاد سلطان مراكش. ويبلغ من حجمها أن أكبرها لا يمكن لرجلين أن يطوِّقاها. وهي تحمل ثمارًا تقارب في الحجم ثمرة الجوز، في عناقيد تتألف من عشر ثمرات إلى عشرين ثمرة. ولا يمكن للشباني أن يحدد اتساع هذه الغابة، غير أنها عظيمة الاتساع. ويحاذي مدينة تمبكتو ـ إلى الجنوب منها ـ غدير صغير يغسل فيه السكان ثيابهم، وعمقه نحو قدمان. وهو يجري في الغابة العظيمة الواقعة إلى الشرق، ولا يتصل بنهر النيل، بل يتلاشى في الرمال الواقعة إلى الغرب من المدينة. وماؤه ملح، أما ماء النيل فعذب سائغ. ويكتنف مدينة تمبكتو سور من اللبِن، والأسوار مشيدة على غرار أسوار الطوابي، كما هو شأنها في الساحل البربري[61]، أي أنهم يصنعون قوالب كبيرة من الخشب

---

[59] **من فاس إلى تافيلالت: 20 يومًا، وأجرة الجمل 11 دوقة.**

من تافيلالت إلى درعة: 6 أيام، وأجرة الجمل 6 دوقات.

من درعة إلى تمبكتو: 43 يومًا، وأجرة الجمل 18.5 دوقة.

المجموع: 69 يومًا، بأجرة تبلغ 35.5 دوقة لحمل الجمل، وهو ما يقارب فارثنغًا واحدًا للقنطار في الميل الواحد. ولا يشمل هذا تكلفة الجمال المستخدمة في نقل التجار والأتباع، إلخ، ولا تلك المستخدمة للزاد أو الماء، وإنما هي تكلفة ما يستخدم منها في حمل البضائع فحسب. طالع الفصل الثامن عشر من كتاب جاكسون عن مراكش تجد وصفًا مفصلًا لتلك القوافل وكيفية عبورها الصحراء الكبرى [المحرر].

[60] **قلت هذه التكلفة اليوم (سنة 1818)؛ إذ هبطت قيمة الدوقة ـ بعد أن سُكّت سكّةً بخسة ـ إلى ثلاثة شلنات وستّة بنسات إسترلينية [المحرر].**

[61] **هكذا تُبنى أسوار الطوابي: يضعون ألواحًا من الخشب على جانبي السور، تدعمها عروق خشبية مغروسة في الأرض، أو يُضمّ بعضها إلى بعض بعروق توضع عرضيًا على طول السور، ثم يُملأ الفراغ الذي يتخللها**

يملؤونها بالطين، ثم ينقلونها بعد أن يجف ذلك الطين إلى مستوى أعلى، إلى أن ينتهوا من بناء السور. وهم لا يستخدمون الحجر أو الطوب قط؛ إذ لا يعرفون كيفية صنع الطوب. ويبلغ ارتفاع السور نحو اثني عشر قدمًا، وهو من المتانة بحيث يحمي المدينة من البدو الجائرين، الذين يأتون كثيرًا كي يأخذوا منهم الأموال. وله ثلاثة أبواب: أحدها يُدعى باب الصحراء، وهو جهة الشمال، ومقابله ـ على الجهة الأخرى من المدينة ـ باب ثانٍ يُدعى باب النيل، أما الباب الثالث فيُفضي إلى الغابة الواقعة إلى الشرق، ويُعرف بباب القبلة[62]. وتقوم الأبواب على مفصلات ضخمة، وهي تُغلق بالأقفال حين تُوصد ليلًا، كما هو الحال في الساحل البربري، كما يُزاد في إحكام غلقها بوضع دعامة خشبية كبيرة بشكل مائل عليها من الداخل. وحول المدينة خندق جاف، أو أخدود (يكتنفها، إلا في المواضع المواجهة للأبواب)، عمقه نحو اثني عشر قدمًا، وهو أوسع من أن يقفز أي إنسان عبره. تُقفل أبواب المدينة الثلاثة كل مساء بعد غروب الشمس بقليل. وهي مؤلفة من أبواب قابلة للانطواء، لكل منها مصراعان فقط. وظاهر الأبواب مكسو بجلود الإبل غير المدبوغة، وتبلغ المسامير التي فيها من الكثرة ما يجعل نقبها ببلطة أمرًا مستحيلًا، وإن مقدمتها لتبدو كأنها قطعة واحدة من الحديد.

السكّان

والمدينة أكبر في الحجم من تطوان مرة ونصف المرة[63]، وبها ـ فضلًا عن الأهالي ـ نحو عشرة آلاف من أهل فاس ومراكش[64]. ويمكن تقدير عدد سكان تمبكتو الأصليين بأربعين ألفًا، دون احتساب العبيد والأجانب. وكثير من التجار الذين يزورون تمبكتو يرتبطون بها إلى حد أنهم لا يستطيعون تركها، بل يعيشون فيها ما بقي من أعمارهم. وجميع الأهالي من السود، وكل الأجانب تقريبًا يتزوجون من نساء المدينة، اللائي يحبهن المسافرون من النظرة الأولى لفرط جمالهن.

بالرمل والطين ويُضرب بمطارق خشبية كبيرة (كما تُضرب المساطب) إلى أن تتصلب وتتماسك. تُترك القوالب حيث هي يومًا أو يومين، ثم تُنزع وتُنقل إلى موضع أعلى، ويكرر هذا الفعل إلى أن يفرغوا من بناء السور [المحرر].

[62] **تعني "القبلة" قبر محمد [كذا]، وفي معظم المدن الأفريقية باب يُعرف بباب القبلة، يواجه المدينة في شبه جزيرة العرب [المحرر].**

[63] **أي أن محيطها يبلغ نحو أربعة أميال. ويبلغ عدد سكان تطوان 16 ألف نسمة، ولكن تمبكتو ـ وفقًا لتقريرنا هذا ـ يقطنها 50 ألفًا، ناهيك عن العبيد، وهو ما يربو على ثلاثة أضعاف سكان تطوان. إذن، ولأن بيوت تمبكتو أكبر رحابة من بيوت تطوان، فمن الجلي أن الشباني قد أخطأ في وصفه لحجم تمبكتو [المحرر].**

[64] **الذين يقصدونها للتجارة [المحرر].**

الخانات أو النُّزُل

يودع الغرباء بضائعهم حال وصولهم في مستودعات كبيرة تسمى الفنادق، ويستأجرون ما شاؤوا من الغُرَف، وتوجد في المكان ذاته اسطبلات لجِمالهم وغيرها. وهذه الفنادق ملكية خاصة[65]، وهي تحمل إما اسم مالكها أو اسم من بناها. وقد كان الفندق الذي أقام فيه الشباني وأبوه مكونًا من أربعين جناحًا للرجال، ناهيك عن الإسطبلات، عشرون منها في الأسفل وعشرون في الأعلى؛ إذ كان المكان من طابقين. وكان الدَّرَج داخليًا، وهو مؤلف من ألواح من الخشب غير المصقول، وكانت الغرف ـ إبان إقامته ـ عامرة طيلة الوقت بالأهلين والغرباء. وقد استأجرا غُرفًا لثلاثة أشهر، دفعوا عنها ثلاثين أوقية[66]، أي خمسة عشر شلنًا إسترلينيًا، في الشهر الواحد. ويسمي الزنوج هذه الفنادق "هوال"[67] ويُدفع المال إلى وكيل المالك، الذي يقيم في الفندق بشكل دائم من أجل الغرض، ومن أجل إمداد الغرباء بالزاد وغيره. وقد ساعدهما الحمّالون عند وصولهما وأمدُّوهما بكل ما أرادوا، ثم استأجرا ـ بعد أن استقر بهم المقام ـ عبدًا وجارية للطهي وتنظيف غُرفهما، ولأداء كل الأعمال الوضيعة. ويمكن شراء العبيد في أي وقت، إذ يقتني النخّاسون عددًا ضخمًا مُعدًّا للبيع.

المنازل

يوجد في البيوت القليل من الأثاث، وأهم الأغراض (بغضّ النظر عن أدوات المطبخ) هي الأسِرَّة، والحُصُر على الأرض، والزرابيّ التي تكسو الغرفة بأكملها. وتبلغ مساحة الغرف نحو أربع عشرة قدمًا في عشر أقدام، ويوجد المطبخ والمغسلة في الأغلب عن يمين الطرقة وعن يسارها، أما المرحاض فيجاور المغسلة[68].

الحكومة

يحكم تمبكتو رجل أسود من أهلها يُلقَّب بالسلطان. وهو خاضع لسلطان الهوسة، ويختاره أهل تمبكتو، الذين يكتبون إلى ملك الهوسة ليُقِرَّ ذلك. وغالب الأمر عند موت السلطان أن يُختار ابنه. ولا يجوز لابن الجارية أن يرث العرش، فإن لم يُخلِّف الملك ابنًا شرعيًا (أي من زوجته)،

[65] **يبدو أن البحّار الأمريكي آدامز (إن كان قد حل بتمبكتو يومًا) قد رأى فندقًا من تلك الفنادق التي يملكها الملك فتوهم أنها قصره [المحرر].**

[66] **تعادل كل عشر أوقيات أو دراهم دولارًا مكسيكيًا واحدًا [المحرر].**

[67] **كان ملك تمبكتو سنة 1800 ميلادية يُدعى "وولو"، وكانت العديد من الفنادق تُؤجَّر لحسابه [المحرر].**

[68] **إذ أن ذلك ملائم لوضوء المسلمين [المحرر].**

اختار الناس خليفته من ذوي قرباه. وليس للسلطان إلا زوجة شرعية واحدة، لكنه يمتلك العديد من الجواري. وللزوجة بيت مستقل لها ولأولادها وعبيدها. ولا يخصص السلطان مقرًا محددًا لجواريه، بل يأخذ من بين إمائه أي فتاة يشاء. وتتولى زوجته الإشراف على إدارة بيته. ويُبنى قصر السلطان في أحد أركان المدينة، إلى جهة الشرق، ويشغل مساحة رحبة من الأرض يكتنفها سور له بوابة. ويضم هذا المربع كثيرًا من المباني، بعضها مخصص لموظفي الدولة. وكثيرًا ما يجلس الملك عند البوابة لمباشرة شؤون القضاء وللتحدث إلى أصدقائه. وبالداخل حديقة صغيرة تُنتج قدرًا يسيرًا من الزهور والخُضَر لمائدته، كما أن به بئرًا يؤخذ منها الماء باستخدام دولاب[69]. وكثير من الجواري تعزفن الموسيقى. وللملك أولاد كُثر، يُعينون للقضاء بين الأهالي. وخلافًا لما هو الحال في الساحل البربري، فلا يوجد نبلاء ولا طبقة مميزة عدا أقارب الملك[70]. ويحظى أهل بيت الملك بتقدير جمّ. ويُعرف موظفو الدولة، كنظرائهم في مراكش، بألقاب خاصة، فيُعرف بعضهم بالقائد، أي رئيس سبعمائة رجل، أو خمسمائة، أو مائة، ويحمل البعض الآخر لقبًا يماثل لقب الباشا. وإذا لم يتخذ الملك لنفسه زوجة من قريباته، اتخذها من أُسر كبار مستشاريه، وتتزوج ابنته رجلًا من الكبراء. وعادة ما تخصص لأرملة الملك مخصصات مستقلة، إلا أنها لا يجوز أن تتزوج. ولا يجوز أن تتزوج جواري الملك الراحل، لكن خليفته ينفق عليهن في سخاء.

العوائد

يأتي جزء من العوائد من الأرض، والجزء الآخر من المكوس المفروضة على جميع السلع المعروضة للبيع. وللملك أراضٍ يقوم على زراعتها فلاحون يلتزمون بتموين بيته وجيشه، ويوضع ما يزيد ـ بعد تموين عائلاتهم هم ـ في مطامير[71]. وهي مخازن مُعدَّة للاستخدام في زمن القحط، ويبلغ عميق المطمور نحو ست أقدام. وكثيرًا ما يَهَب الملك لمحاسيبه التبر والعبيد وغيرهما، إلا أنه لا يتنازل قط عن أراضي الدائرة الملكية. وتُستخدم الأراضي قليلة الخصوبة

---

[69] دولاب شبيه بالساقية، يُديره بغل أو حمار، وله أوانٍ تصب الماء في قناة أثناء دورانها، وتصب هذه القناة الماء في الحديقة لتسقي النباتات [المحرر].

[70] الطبقة المميزة في الساحل البربري هم الفقراء (المتصوفة)، ولا نبلاء في الساحل البربري إلا أهل بيت الملك، الذين يُعرفون بالأشراف [المحرر].

[71] حُفَر تحت الأرض، أو حُجرات مخروطية الشكل، لها فتحات صغيرة كالباب المسحور. تُغلق هذه المطامير حين تمتلئ بالغلال. ولخلوّها من الهواء، تظل الغلال المخزّنة فيها صالحةً لعشرين أو ثلاثين عامًا. وقد زُرت مطامير في الساحلين البربري الغربي والجنوبي كان تتسع لألف صاعٍ من القمح، أو نحو ألفي بوشِلٍ من قياس وينشستر. ويبلغ عمقها ستة أقدام إلى ستة عشر قدمًا، وتتخذ أشكالًا مخروطية عدة [المحرر].

كمراعٍ عامة. ولا يدفع المغاربة مُكُوسًا، وهم يقولون إنهم سيمتنعون عن جلب البضائع إذا أُجبروا على دفع المكوس. أما الأهالي فيجب أن يدفعوا. ويتولى موظفو الملك جباية المكوس، وهي أربعة بالمائة وفق القيمة الاسمية لكل سلعة. ولا يُدفع عن البضائع التي يجلبها الغرباء من بوابة الصحراء شيء، أما البضائع التي تُجلب عبر بوابة النيل (وهي بوابة الزنوج) فتُدفع عنها ضريبة. وثمة قسمٌ آخر من العائد هو اثنان بالمائة من نفس جنس ما تغل الأرض، ولكن أهل الساحل البربري لا يدفعونه هو الآخر عن أي أرض يزرعونها. وتؤول أملاك من يموت إلى الملك، ولكن عندما يموت أحد الغرباء فإن الملك لا يستحوذ على أي نصيب من أملاكه، بل يُترك لأقاربه. ولكون تمبكتو مدينة حدودية، فهي لا تدفع أي عوائد للهوسة، بل إن ملك الهوسة يُرسل المال إلى تمبكتو لسد نفقات الحامية.

الجيش

يتكفل ملك الهوسة بنفقات القوات، وأسلحتها هي الرماح والسيوف والقطالس[72] والسيوف الضالعة[73] والبنادق، ويستخدم الأهالي الآخرون القوس والسهم. ويوجد في تمبكتو في زمن الحرب نحو 12 ألف أو 15 ألف جندي، يُمنح 5000 منهم أجرًا يوميًا ثابتًا في زمن السلم، ويُكسَون كل عام، وجميعهم من المشاة ما عدا قليل من آل الملك. وأحيانًا ما يستعين بحلفائه من العرب، ويقدّم الهدايا إلى زعيمهم أحيانًا.[74] ويمكن لهؤلاء العرب أن يُمدُّوه بثلاثين ألف إلى أربعين ألف رجل.

[72] **القَطلَس cutlass:** هو سيف قصير ثقيل ذو نصل مستقيم أو منحنٍ وطرفه الأمامي مدبب. عُرف في الغرب كسلاح بحري في أوائل ما عُرف بعصر الشراع. والكلمة إنجليزية مأخوذة عن الفرنسية، التي أخذتها بدورها عن كلمة إيطالية تعني "السكين الكبيرة" [المترجم].

[73] **السيف الضالع sabre:** هو سيف وحيد الحد ذو نصل مقوّس وله وقاء يد كبير نسبيًا، كان من أسلحة سلاح الفرسان الخفيف في أوروبا في مطلع العصر الحديث والحقبة النابليونية [المترجم].

[74] **زعيم قبيلة البرابيش. انظر الخريطة [المحرر].**

والعقوبات هي الجلد على الأقدام، والسجن، والغرامة. وهو لا يتذكَّر من السجون إلا واحدًا. وإذا طعن أحد الأهالي شخصًا آخر من الأهالي، وجب عليه أن يعتني بالجريح حتى يشفى، فإن مات كان الموت من نصيب الجاني. ويجب أن يُجري الجاني على الجريح نفقة يومية لإعاشته، فإذا تبينت خطورة الجرح، سُجن الجاني من حينه، فإن شُفي الجريح، وجب على الجاني دفع غرامة وضُرِب بالعصا. ويُنفَّذ الإعدام بأربع طرائق هي قطع الرأس والشنق والخنق والضرب بالعصا حتى الموت. وقطع الرأس هي الطريقة المفضلة، ولذا فهي المتبعة. يجلس المجرم، ثم ينكزه شخص من خلفه في ظهره أو كتفه فيُدير رأسه، وما إن يُسترعَى انتباهُهُ بهذه الطريقة حتى يضرب الجلّاد عنقه. ونادرًا ما تُستخدم طريقتا الشنق والخنق، ولا يستخدم الضرب بالعصا حتى الموت إلا إذا كان الجرم بالغ الجسامة. والعقوبات المُوجبة للإعدام هي القتل العمد والسرقة بالإكراه وسرقة الماشية. أما الجُنَح الصغيرة كسرقة العبيد وغير ذلك من الأغراض فتُعاقَب بالضرب بالعصا. ولا تُصادَر العقارات المملوكة للمجرمين.[75] والشرطة تعمل على أكمل وجه، مما يجعل التجار يتمتعون بالأمان التام حالَ إقامتهم. ولا تقوم الحكومة بأعمال مصادرة أو وضع يد كما يحدث في الساحل البربري، بل ولا تُطلب أية هدايا للملك. ولا يجوز التعرُّض للمدين إذا ثبت إعسارُه.[76] بل يظلُّ مُلزمًا بسداد دينه في حدود استطاعته، فإن أبى السداد سُجِن، ولكن إذا أثبت للقاضي إعساره أُفرِج عنه، على أن يظلَّ مُلزَمًا على الدوام حالَما توفرت له أسباب السداد مُستقبلًا. ويقوم العسس وكلابهم بدوريات ليلية، بينما يتمركز آخرون في مواقع معينة، كالسوق والقيسارية ـ أي الساحة ـ التي بها دكاكين التُّجَّار. ويوضع حراس عند قصر الملك. ويتولى الملك الفصل في الجرائم الكبرى، أما الجنايات الأقل خطرًا فيفصل فيها القُضاة الأدنى مكانة. ويجلس مجلس الشورى مع الملك، كلُّ رجلٍ وفق مرتبته. وهو مؤلَّف من كبار موظفي قصره. وهو يطلب رأيهم، ولكنه يحكم برأيه هو مالم يُجمعوا على رأي واحد. ودائمًا ما

[75] **بل تؤول إلى ورثتهم [المحرر].**

[76] **هذا هو نص التشريع الإسلامي المكتوب. فالمُعسِر مُلزَم بدَينِهِ دائمًا، ولكن لا يجوز القبض عليه أو سجنُه وهو مُعسِر، بل يظلُّ مُلزمًا بسداد الدَّينِ حالَمَا تيسرت أحواله. وقد أصدر مؤخرًا سلطان مراكش الحالي ظهيرًا؛ إذ بلغه أن رعاياه من اليهود في لندن يُشهرون إفلاسهم كثيرًا، أو يعقدون تسويات مع دائنيهم، فأصدر تشريعًا يقضي بوجوب أن يسدد كلٌّ في بلاده من المشتغلين بالبيع والشراء كاملَ ديونهم، فإن لم يستطيعوا وجب على إخوتهم أو أقاربهم السداد عنهم. فإن لم يستطيعوا فيُجلّد المُعسِر عند شروق كل صباح تذكيرًا له بما بدَّد. وقد صدرَ هذا القانون في فاس سنة 1817، وأُخبِرتُ أنه ـ منذ ذلك الحين ـ لم تحدث أي حالة إفلاس في تلك المدينة التجارية العظيمة [المحرر].**

يجلس للقضاء العام في بلاط الملك خمسة قضاة أو ستة. ومن المعلوم أنه لا سُلطة للملك في تغيير القوانين، فإن اتفق مجلس الشورى على رأي لم يخالفهم الملك قط.[77]

والعبد دائمًا تحت تصرُّف سيده، الذي له أن يقتله دون محاكمة. إلا أنه للعبد أن يرفع إلى المجلس شكوى لسوء المعاملة، فإن كانت الشكوى صحيحة الأسانيد أُمر السيد ببيعه. والعبيد دائمًا من الأجانب، ولا يمكن أن يُستعبد أحد من الأهالي. وهناك ثلاثة أسباب يمكن أن يُمنح من أجلها العبد حريته، هي نقص الغذاء ونقص الكساء، ونقص الحذاء. وكثيرًا ما يُحرَّر العبد المُسن ليعود إلى بلده. وأطفال العبيد مِلكٌ لسيدهم. ولا يجوز للعبيد الزواج دون إذن سادتهم. وعادةً ما يسعى سيد الجارية إلى شراء العبد الذكر الذي تكون مقترنة به[78].

المواريث

يكون أول المطالبين عند موت أحد الأهالي هم دائنوه، يليهم زوجته، التي يصير من حقها مؤخر الصداق [يتعهد الزوج دائمًا بأن يدفع لوالد زوجته مبلغًا معينًا، وهذا هو مؤخر الصداق عند المسلمين.] الذي وعد به زوجها أباها، إن لم يكن قد دُفِع بالفعل، بالإضافة إلى ثُمن الباقي، وتقسم البقية بين أبنائه. ونصيب الابن ضعف نصيب الابنة. وقد تُباع الأرض إذا اتفقوا على ذلك، فإن لم يتفقوا فلا بُدَّ أن تقسم على نحو ما سبق. ولا يباع من الأراضي والعقارات شيء إلا بعد بلوغ الأطفال سن التمييز، وهنا يُعطى كل منهم نصيبه، ولا تُباع البقية إلى أن يبلغ الآخرون سن الرشد بدورهم. ولا تُعيَّن هذه السن بعدد السنوات، بل يضطلع الأقارب ـ بعد أن يحلفوا اليمين أمام قاضٍ ـ بتحديد فترة التمييز. ولا يكاد يوجد رجل يعرف سنّه. وللرجل أن يتصرف في أملاكه بالوصية، وكذلك في أملاك أبنائه، ولكن ليس له أن يحرم زوجته من حقوقها. فإن ماتت زوجةٌ دون وصية ورثها أبناؤها. والوصايا لا تُكتب. ويتولى الوصي الذي يعينه الأب العناية بأملاك المتوفى، ويوظفها في التجارة ويقرضها لصالح أبنائه. ويرث الأقارب إن لم يكن هناك أبناء، فإن انعدم الأقارب آل كل شيء إلى الملك عدا نصيب الزوجة. ولا يُعدّ أقاربُ الزوجة من أقارب الزوج. ويرث أبناء الجواري كأبناء الزوجة سواء بسواء. وإن كان

[77] **وهذه عادة مأخوذة عن الدول الإسلامية [المحرر].**

[78] **يُقدِّر كثيرٌ من المسلمين من ذوي الضمائر الحية ـ حين يشترون العبيد ـ عدد سنوات الخدمة التي تعادل ما يدفعونه من ثمن. فإذا كان رجل يدفع لخادم أجرًا قدره عشرون دولارًا في السنة، واشترى عبدًا بمائة دولار، فهو يُمسِكُ العبد عنده خمسة أعوام ثم يُعتقه إن كان سلوكُهُ حسنًا. إلا أن المدة التي يُعتَق بعدها العبد بهذه الكيفية اختيارية، وتخضع لتفاوت كبير، وليس السيد ملزمًا بذلك بأية حال. وقد شهدتُ حالات أُعتِق فيها العبد بعد بضع سنوات من العبودية، وبلغت ثقة سيده حد ائتمانه على مال يتاجر به، والسماح له بعبور الصحراء إلى تمبكتو، منتظرًا سداد هذا المال لدى عودته. وهذا ما جرت عليه عادة المسلمين في معاملة العبيد! وكم هي مختلفة عما يفعله المزارعون في جزر الهند الغربية! [المحرر]**

للرجل طفلان من جارية، أُعتقت بعد وفاته، وإلا ظلت أَمَة، وهي تستحق ـ إن كان لها أطفال ـ ثُمن التركة.

الزواج

يُقر الرجل بأن يدفع قدرًا معينًا من المال لوالد زوجته، ويُدعى الشهود للشهادة على العقد. وتعود الفتاة إلى بيتها، وفي المساء يُقيم الزوج مأدبة لأصدقائه وتقيم الزوجة مأدبة لصديقاتها.

وعقوبة الاغتصاب هي الموت. ولا عقاب في القانون على الزنا. وللرجل أن يطلِّق زوجته، لكنه يُلزم بدفع مؤخر صداقها المتفق عليها إن كان ذلك بلا سند قانوني. وسلاطة اللسان سبب كافٍ للطلاق، لكن الزنا ليس سببًا كافيًا. ومؤخر الصداق هو المبلغ المتفق عليه مع الأب مسبقًا، وإذا كان قد دُفع بالفعل (وهذا أمر نادر الحدوث) فليس لها حقوق أخرى عند زوجها، حتى ولو كانت قد طُلقت بلا مبرر كافٍ. وتعد ثيابها وحليها وغير ذلك مما أهداه إليها أقاربها مِلكًا لها. وعادةً ما يُهدي الأب ابنته من الحلي وغيرها ما قيمته ضعف ما دفعه إليه الزوج. ولا يحق للزوج إلا زوجة واحدة، ولكن له أن يتخذ الجواري. ولا يؤاخذ القانون على الإغواء والزنا، فالقانون يقول "إن جسد المرأة ملكٌ لها، ولها أن تفعل به ما تشاء". وتكثر البغايا. ويجوز للرجل أن يتزوج من ابنة أخيه، ولكن لا تجوز له ابنته.

وأهل تمبكتو غير مختونين.

التجارة

تمبكتو حاضرة تجارية لكل بلاد السودان، بل ولمراكش والإسكندرية.

وأهم السلع هي التبغ والكميمة[79]، وخرز القلائد بمختلف ألوانه والوَدَع، الذي يُشتَرَى من فاس بالرطل. وثمة مرايا هولندية، بعضها محدَّب، لها أُطُر من الورق المذهب[80]. وهم لا يحملون

[79] **الكميمة هو الاسم العربي لقماش الكتان المسمى "بلاتيلياس"، ويبلغ ثمنه في تمبكتو 50 دولارًا مكسيكيًا للقطعة [المحرر].**

[80] **تُعرف في أمستردام باسم "فيلت شبيغل" Velt Spiegel (مرآة العالم)، وفي تمبكتو بمرآة الوجوه [المحرر]**

من السيوف والبنادق والمُدَى إلا بقدر ما تحتاجه القافلة. ويشترون الملح الصخري[81] عند مدخل الصحراء من العرب الذين يجلبونه لهم في أحمال معبأة في غرارات، وهم يحملونه كسلعة يتاجرون بها.

وقد ضمت قافلتهم نحو خمسمائة جمل، كان نحو 150 أو 200 منها محملة بالملح. وتحمل الجِمال من الملح أقل مما تحمل من أي سلعة أخرى؛ لأن أجسادها تهترئ من جرّائه لكونه ملحًا صخريًا. وهم ينقُدون هؤلاء العرب مبلغًا في حدود عشرين أونصة إلى خمسة عشر أونصة (أوقية)[82] من النقود البربرية عن الحِمل الواحد. وتعادل الأونصة البربرية نحو ستة بنسات، أما الدوقة فتعادل نحو خمسة شلنات إسترلينية. وهم يبيعون ملحهم في تمبكتو بربح متوسطُهُ خمسون بالمائة، وهو أوفر ربحًا من الكتَّان. وهم لا يحملون زيتًا من الساحل البربري إلى تمبكتو؛ إذ يحصلون على زيت السمك ـ الذي يُستخدم في المصابيح وليس للطعام ـ من أماكن أخرى، وهم يصنعون الصابون من الزيت. ويُدفع المقابل بتراب الذهب (التبر) والعبيد والعاج والفلفل، والتبر هو المقابل المُفضَّل، وهو يُجلب إلى تمبكتو من الهوسة في غرارات جلدية صغيرة. وقد اشترى غرارة من غرارات التبر والخواتم هذه بتسعين دولارًا مكسيكيًا، وباعها في فاس بمائة وخمسين. ويجلب التجار ذهبهم من تمبكتو في الأخراج[83]، في أكياس مختلفة الأحجام بعضها داخل بعض. وقد كان الخُرج الذي اشتراه الشباني مجلوبًا من الهوسة، حيث يُباع بسعر أقل من سعره في تمبكتو بسبع دوقات أو ثمانٍ.

يبلغ صافي ربحهم في السلع التي يؤتى بها من مراكش ما بين ثلاثين بالمائة وأربعين بالمائة. ووسيلة التعامل هي الودع والتبر. وعادة ما يبيع الأشراف وغيرهم من التجار بضاعتهم لبعض كبار تجار البلد، ثم لا يلبثون أن يُرسلوا العبيد حاملين معهم التبر إلى بلدان أخرى. وللتجار المقيمين في تمبكتو وكلاء أو مراسلين في غيرها من البلدان، وهم بدورهم وكلاء لآخرين في المقابل. ويطرُق تمبكتو التجار من كل بلاد السود المجاورة. وبعض سكانها يتمتعون بثراء عريض. وكثيرًا ما تبلغ قيمة ثياب المرأة من العامة ألف دولار. ومن أهم مصادر ثروتهم إقراض التجار الأجانب التبر والعبيد بفائدة باهظة تُدفع في صورة بضائع من مراكش وغيرها من البلدان التي يُحمَل إليها التبر والعبيد. وهم يعقدون الصفقات في العادة في السوق العمومية،

---

[81] **يُشترى هذا الملح من تيشيت وأراوان وسانساديـنغ (شنغرين)، وهي في القسم الجنوبي من الصحراء. طالع خريطة الشمال والوسط الأفريقي في الملحق الجديد لدائرة المعارف البريطانية، مقالة "أفريقيا" [المحرر].**

[82] **يُطلق على قطعة النقد هذه في العربية اسم "الأوقية" [المحرر].**

[83] **الأخراج والأخرجة:** جمع خُرج [المترجم].

إلا أنهم كثيرًا ما يُرسِلون إلى التاجر أو يذهبون إلى بيته. والودع ـ ما كان منه قليل العيوب ـ عملة رديئة، وهو أبخس قيمة من العملات الأخرى المفضَّلة. وليس ثمة أيام محددة للسوق، فالسوق العمومي المخصص للمؤن هو ساحة مفتوحة تبلغ مساحتها خمسين قدمًا مربعًا تحيط بها المتاجر[شبيهة بسوق الغلال في موگادور (الصويرة)]. يجلس العرب على بضائعهم في المنتصف إلى أن ينتهوا من بيعها. ويزيد وزن الرطل في تمبكتو أوقيتين عن رطل الساحل البربري الأقل وزنًا، الذي يزن عشرين دولارًا إسبانيًا، ولديهم فضلًا عن ذلك نصف الرطل وربع الرطل، وبهما يُباع الحليب والأرز والزبد وغيرها، كما تباع بالمكيال أيضًا. وتُتَّخذ الأوزان من الخشب أو الحديد تحت رقابة مأمور يُعرف في الساحل البربري بالمحتسب، أي مراقب الأوزان والمكاييل. فإذا وُجِد تطفيف في الموازين أوقع بالجاني عقابًا ناجزًا، ولديهم أيضًا السنتال أو وزن المائة[84]، ولديهم مكيال مكيال خشبي يُسمى المُدّ[85]، وهو يعادل المُدّ الصغير المعروف في الساحل البربري، الذي يبلغ فيه وزن مُدّ القمح 24 رطلًا. وتُقسَّم الموازين والمكاييل إلى نصف وربع وثُمن وجزء من ستة عشر جزءًا.

الصناعات

يشتغل الأهالي من السود بالحدادة والنجارة والإسكافية والحياكة والبناء، لكنهم لا يشتغلون بالنسج، بل يشتغل به أهل الحي من العرب، إذ يصنعون زرابي على شاكلة زرابي فاس ومصراتة، التي تُعرف فيها بالتليس[86] [87]، وهي مصنوعة من الصوف الذي يتخذونه من خرافهم، ومن وبر الجِمال. وتُتَّخذ الغرارات التي تُحمل فيها البضائع، والخيام، من شعر الماعز ووبر الجِمال. وليس في تلك البلاد نخيل. وتُجلب لهم الخيوط[88] والإبر والمقصات وغيرها من فاس، ويبتاعون معظم محاريثهم من العرب القاطنين قرب المدينة، والذين يُعدُّون من رعاياها. ويُصنع بعضها في المدينة. ويُصنِّع هؤلاء العرب الحديد من خام يوجد في البلاد، وهم حدّادون ماهرون، ويصنعون قضبان حديدية ذات جودة ممتازة. وهم يتقنون دباغة جلود نعال الأحذية، لكنهم

---

[84] انظر الحاشية رقم 30 [المترجم].

[85] **لم يعد المُدّ مستخدمًا في الساحل البربري، فهناك الخرُوبة، التي تعادل ست عشرة منها صاعًا واحدًا، وهو مكيال إذا مُلئ بالقمح الجيد بلغ وزنه 100 رطل، أي ما يعادل 119 رطلًا إنجليزيًا [المحرر].**

[86] **المفرد تليسة، والجمع تليس [المحرر].**

[87] **التليس** في لغة أهل طنجة هو نوع من الزرابي رقيق متعدد الألوان، وهو ما يُعرف في الأطلس بالحنبل [مدونة بن عبد الصادق الريفي].

[88] **وهي تُجلب إلى فاس من إنجلترا مرورًا بجبل طارق وموگادور (الصويرة) [المحرر].**

يجهلون معالجة الجلد بالزيت. وتُجلب أجود أنواع الجلود من فاس[89]، كما يجلبون أمشاطهم الخشبية[90] وملاعقهم من بلاد البربر، وليس لديهم ملاعق من العاج أو القرون. ولا يُجلب الرصاص من بلاد البربر، ولذا فهو يرى أن لديهم موارد خاصة للرصاص. وتُجلب أفضل الأحذية من فاس.

الفِلاحة

وأراضي هذه البلاد مزروعة كلها، اللهم إلا جهة الصحراء. ولديهم أرز يُعرف بالبشنة[91] [92] ونوع من الذرة يسمونه "أللِيلا"[93]، ويُسمى في مراكش بالذُرَة (الدرة)، ولا بُد له من تربة بالغة الخصوبة. وهم يتخذون من البشنة خبزًا، وليس عندهم قمح ولا شعير. وتُسوَّر الأملاك برُكام ترابي وخندق. والندى كثيف. وتُسقى الأراضي بقنوات تُشقُّ من النيل[94]، أما الأراضي المرتفعة فتُسقى بماء الآبار، التي يُرفع ماؤها ـ كما هو الحال في مصر ـ باستخدام سواقٍ[95] تُديرها الماشية. ويشهد فصل الصيف لديهم عواصف رعدية عاتية، غير أنها ليست بالمطيرة. وصباح الشتاء ومساؤه باردان، وتأتي أشد الرياح بردًا من جهة الغرب، وتكون برودتها في ذلك الوقت كبرودة رياح فاس. ويدوم الشتاء نحو شهرين، مع أن الجو يكون رطبًا في الفترة ما بين سبتمبر وأبريل. وهم يشرعون في بَذر الأرز في أغسطس وسبتمبر، مع أن قد يبذرونه في أي وقت ما دام الماء في متناولهم. وقد رأى بعضهم يبذرون الأرز بينما يحصده آخرون. وتُبذر البشنة وغيرها من أصناف الذُّرة قبل حلول شهر ديسمبر. وتنضج البشنة ـ شأنها في ذلك شأن الجلبانة (البازلاء) ـ في يونيو ويوليو. ويمكن أن يُبذر الألليلا في أي فصل، وهو لا يحتاج السقي بالماء إلا كل ثمانية أيام أو عشرة أيام. والجلبانة عندهم ـ كجلبانة مازاغان ذات الحبوب الصغيرة

---

[89] **كما تُستورد الجلود من مراكش ومن تارودانت في جنوب بلاد البربر [المحرر].**

[90] **تُستورد الأمشاط الخشبية من مارسيليا إلى موگادور [المحرر].**

[91] **البشنة: هو الاسم العربي للذرة الصفراء (الذرة الهندية) [المحرر].**

[92] يُطلق لفظ البشنة في المغرب على الدخن، ويُعدُّ الدخن غذاء مهمًا في بلدان إفريقيا الجافة، التي يُطهى فيها كما يُطهى الأرز، كما يُطحن كالقمح ويُصنع منه الخبز [المترجم].

[93] **ألليلا: هو صنف من الدخن [المحرر]**

[94] كان يسود في الغرب ـ إلى ما بعد تأليف هذا الكتاب ـ اعتقاد بأن النيل الأبيض ينبع من الغرب، وأن ثمة اتصالًا بين نهري النيجر والنيل، كما كان العرب يُطلقون على نهر النيجر اسم "نيل السودان" [المترجم].

[95] **تشبه هذه الساقية العجلة الفارسية (الساقية) التي سبق وصفها في هامش صفحة 13 [المحرر].**

ـ تُبذَر في مارس، وسويقاتها قصيرة، بَيد أنها مليئة بالقرون. وتُنتج الألليلا حبوبًا صغيرة بيضاء مفلطحة.

المُؤَن

وقوام غذائهم هو الأرز، لكن الأغنياء منهم يأتيهم دقيق القمح من فاس[96]، ويصنعون خبزًا ممتازًا يُعدُّ من أصناف الترف. ويُصنع الخبز كذلك من الألليلا. وهم يحمِّصون ويسلقون ويخبزون ويُسبِّكون، غير أنهم لا يصنعون الكسكسي. ووجباتهم هي الإفطار والغداء والعشاء، ومن عادتهم أن يفطروا نحو الساعة الثامنة، ويتغدَّوا نحو الثالثة، ويتعشَّوا بعد غروب الشمس. وهم لا يشربون مع وجباتهم إلا الماء أو الحليب، ولا يتناولون نبيذ التمر أو أي شراب مخمّر، وعندما يرغبون في الترفيه عن أنفسهم بعد العشاء، يُقدِّمون نباتًا مُسكِرًا يُعرف بالحشيشة، يزدردون حفنة منها ويُعقبونها بجرعة من الماء[97] [98].

[96] **وكذلك من مراكش [المحرر].**

[97] **الحشيشة هي نبات القنب الأفريقي، وهي تُحدث حالة استثنائية ومبهجة من الخواء الذهني الممتع عند أولئك الذين يُدخِّنونها. يعتري العقل ـ خلافًا لما يحدث عند السُكر بالخمر ـ سُبات خلّاب تتخلله أحلام سارة. والكيف هو أزهار النبات وبذوره، وهو مُخدِّر قوي إلى حدّ أن أولئك الذين يتعاطونه لا يستطيعون شيئًا دونه. لمزيد من المعلومات عن هذا النبات، انظر كتاب جاكسون عن مراكش، ط 2 أو ط 3، ص 131 و 132 [المحرر].**

[98] مما ذكره جاكسون في المرجع المشار إليه في الحاشية السابقة: "الحشيشة والكيف: والنبات المسمى بالحشيشة هو نبات القنب الأفريقي، وهو ينبت في جميع الحدائق، ويُزرع في سهول مراكش لغرض صناعة الحبال المفتولة... وهو ـ خلافًا لما يحدث عند السُكر بالخمر ـ يُحدث سُباتًا خلّابًا يعتري العقل وتتخلله أحلام سارّة. والكيف، وهو زهرة النبات وبذوره، هو أقوى ما فيه أثرًا، ويكفي ملء غليون منه ـ بقدر نصف غليون التبغ الإنجليزي المعروف ـ لإحداث النشوة. ويُسحق الكيف في الغالب ثم يُمزج بالمعجون، وهو عجينة منعشة تُباع بثمن باهظ، ومن شأن قطعة منه يبلغ حجمها حجم الجوزة أن تُذهب صواب الرجل وعقله حينًا من الوقت... ولا يضاهيه في رأيهم لا الخمر ولا البراندي. وتُجفف الحشيشة ـ أي أوراق النبات ـ وتُقطّع كالتبغ، ويدخنونه في غلايين صغيرة جدًا.... وهو يُحدث فعله في أقل من نصف ساعة" [المترجم].

الأنعام

والأغنام بالغة الضخامة، أحجامها كأحجام العجول في إنجلترا، وهي كثيرة العدد جدًا، والخراف بالغة الضخامة أيضًا. أما الماشية فهي صغيرة، وكثير منها من الثيران. وحليب الإبل والغنم مفضل على حليب الأبقار. والخيول صغيرة الحجم، وقوام غذائها حليب الإبل، وتشبه في الشكل الكلاب السلوقية[99]، وهي قادرة على السفر بلا راحة لثلاثة أيام. وعندهم كذلك هُجُن تقطع الرحلة من تمبكتو إلى تافيلالت[100] في زمن قصير قدره خمسة أيام أو ستة.

الطيور

ولديهم الدجاج المعروف، والنعام، وطائر أكبر من الشحرور الذي نعرفه،[101] وكذلك اللقالق، والأخيرة طيور مهاجرة تصل في الربيع وتختفي عند اقتراب الشتاء، والسنونوات، إلخ.

الأسماك

وعندهم منها في النيل كثير من الأنواع بالغة الجودة، ومنها نوع يماثل في الشكل والحجم سمك السلمون الذي نعرفه،[102] ويبلغ طول أكبرها نحو أربعة أقدام. وهم يستخدمون صنانير وخطاطيف مجلوبة من الساحل البربري، وشِباكًا كشباك الصيد الطراحة التي عندنا، يصنعونها بأنفسهم. وهم يقذفون الأسماك كبيرة الحجم بالرماح وحراب الصيد.

أسعار مختلف الأغراض

يبلغ سعر الخروف ما بين عشرة وستة عشر صَدَفة. وللصَّدَف[103] قيمة كبيرة، وتُزين به حتى أغنى النساء أغطية رؤوسهن، فهو ذو قيمة عالية كغرض من أغراض الزينة. والماعز أرخص ثمنًا من الخراف، إذ يتراوح سعر أفضلها ما بين ثماني ودعات واثنتي عشرة ودعة.

---

[99] هذه هي الخيول الصحراوية، أو شاربات الريح. انظر كتاب جاكسون "مراكش"، ط 2 أو ط 3، من ص 94 إلى ص 96 [المحرر].

[100] وهي مسافة تربو على 1200 ميل بريطاني [المحرر].

[101] الزرزور [المحرر].

[102] سمك الشابل، وهو نوع من السلمون، سمك شهيٌّ للغاية، غير أنه دسم جدًا فيُفضَّل أن يُشوى، وهو أمر يتقنه العرب أيَّما إتقان [المحرر].

[103] يُعرف الصدف باسم "الوَدَع"، ويباع في سانتا كروز وفي جنوب الساحل البربري بعشرين دولارًا مكسيكًا للقنطار [المحرر].

ويبلغ سعر الدجاجة ما بين أربع ودعات وست ودعات. والظباء نادرة وعزيزة للغاية. ويتراوح سعر الجمل بين ثلاثين ودعة وستين ودعة، حسب حجمه وحالته. أما النعام ـ الذي تُجلب أعداد ضخمة منه إلى السوق ـ فرخيص جدًا، وكثيرًا ما يُؤخذ ريش مقدمه[104] إلى تافيلالت ومراكش، أما الأسفل منه فيُتخلَّص منه. وثمن العبد الجيد عشر دوقات أو خمس عشرة أو عشرون دوقة من فئة الخمس شلنات، أما في فاس فثمنهم يتراوح بين ستين دوقة ومائة دوقة، والإناث منهم أغلى ثمنًا. ويبلغ ثمن العبد أقصاه وهو في نحو الثانية عشرة من عمره. وعندهم زيت سمك يستخدمونه في القناديل، غير أنهم لا يتخذون من الشمع ولا من الشحم الحيواني شموعًا. وزيت السمك سلعة تجارية بالغة الأهمية، وهو يُجلب إلى الهوسة من المناطق المتاخمة للبحر[105] في گناوة[106]، ومنها إلى تمبكتو، وهو في تمبكتو أغلى منه في الهوسة، وفي الهوسة أغلى منه في گناوة.

الملبس

يعتمر السلطان عمامة بيضاء من شاش (موصلي) فاخر، أطرافه مطرّزة بالذهب، وهي تُجعل من الأمام. ويُجلب هذه العمامة من بنغالة.[107] وهو يرتدي قميصًا قطنيًا أبيض واسعًا، ذا أكمام طويلة وفضفاضة، مفتوح من مقدمه، وهو ـ خلافًا لأقمصة العرب ـ يصل إلى الكاحلين، وفوقه قفطان[108] من قماش صوفي أحمر، له نفس الطول. وللون الأحمر عامةً قيمة كبيرة. ويُصنع القميص (القُمجة) في تمبكتو، أما القفطان فيُجلب جاهزًا من فاس، وتُلبس فوق القفطان صدرية قطنية قصيرة ذات خطوط بيض وحمر وزُرق، تُجلب من بنغالة وتُسمى بالجلابة.[109] وأكمام القفطان فضفاضة كأكمام القميص، ويُضم مُقدمه بأزرار على الطريقة مراكشية، غير أنها أكبر حجمًا. وأكمام الجلابة فضفاضة كأكمام القفطان، وهو يطوي الأكمام جميعًا إلى ما فوق الكتفين عند الجلوس،[110] بحيث يصير ذراعاه عاريين ويصل الهواء إلى جسده.

توضع على عمامته، فوق الجبهة، كرة من الحرير كالإجاصة تُعدُّ من علامات المُلك. كما يعتمر طاقية حمراء ضيقة كشأن مغاربة تطوان، ويرتدي وشاحين، على كل كاهل واحدًا، كتلك التي يرتديها المغاربة حول الخصر، وهما أقرب إلى الحبال منها إلى الأوشحة، وحجمها

---

[104] ويُسمى بالوجوه [المحرر].
[105] لعله ساحل غينيا، الذي تنشط التجارة بينه وبين الهوسة [المحرر].
[106] أي غينيا. وگناوة (غناوة) هو الاسم العربي لساحل غينيا [المحرر].
[107] أي البنغال [المحرر].
[108] للقفطان، أي المعطف، أكمام فضفاضة، وليس له ياقة، ولكن له أزرار بطوله كاملًا من الأمام [المحرر].
[109] ليس القماش القطني الذي يُجلب من بنغالة هو ما يُعرف بالجلابة، بل طراز الثوب أو تفصيلته [المحرر].
[110] على الطريقة المراكشية [المحرر].

كبير للغاية، يُستخدم في صُنع كل واحد منها نصف رطل من الحرير. ولا ترتدي الرعية إلا وشاحًا واحدًا، وهي إما حمراء أو صفراء أو زرقاء، وتُصنع في فاس. وهو ـ كرعيته ـ يرتدي وشاحًا حول خصره، مصنوعًا هو الآخر في فاس، وهو على نوعين: أحدهما من الجلد وفي مقدمه إبزيم من الذهب، كذلك الذي يرتديه الجند في الساحل البربري، والآخر من الحرير، كذلك الذي يرتديه التجار المغاربة. وهو يرتدي كرعيته سراويل مصنوعة على الطراز المراكشي، تكون في الصيف من القطن وتُصنع في تمبكتو، وفي الشتاء من الصوت وتُجلب جاهزة من فاس. ويُميَّز حذاؤه بقطعة من الجلد الأحمر في مقدمة الساق عرضها نحو ثلاث بوصات وطولها نحو ثماني بوصات، وهي موشاة بالحرير والذهب.

وهو يحمل وهو في مسكنه خنجرًا ذا مقبض من الذهب، يتدلى من جانبه الأيمن. وعندما يخرج، يحمل خدمه عنه غدارته وقوسه وسهامه ورمحه.

ويرتدي رعاياه ثيابًا على نفس النسق، عدا ما يُعدُّ منها خصيصة ملكية، أي الإجاصة، ووشاحي الكتفين، وقطعة الجلد الموشاة التي على الحذاء.

وترتدي السلطانة قفطانًا مفتوحًا من الأمام من أعلاه إلى أسفله، وتحته قميص تحتي من القطن مثل ما يرتدي الملوك، شالًا هنديًا على الكتفين يُربط من الخلف، ومنديلًا حريريًا حول رأسها. وترتدي سواها من النسوة ثيابًا على نفس النسق. وهن لا يرتدين السراويل الداخلية. وترتدي النساء ـ حتى أشدهن فقرًا ـ الثياب في كل حين، وهن لا يُبدين صدورهن. ويضع الرجال والنساء أقراطًا. ويبلغ سعر الثوب النسائي ما بين دوقتين وثلاثين دوقة[111]. وأحذيتهن حمراء، تُجلب من مراكش.[112] وهُنّ يزيِّنَّ أذرُعهن وكواحلهن بالأساور، تتخذها الفقيرات من النحاس الأصفر، والميسورات من الذهب. وتُزين الميسورات رؤوسهن بالودع. ولا تتخذ الفقيرة إلا خلخالًا واحدًا في ساقها، وسوارًا واحدًا في ذراعها. أما الميسورة فتتخذ اثنين. وهن يضعن في أصابعهن خواتم ذهبية، وليس عندهم لآلئ أو أحجار كريمة. والنساء غير مخمّرات.

الترفيه

يمتلك الملك من الخيول خمسمائة أو ستمائة، وتقع اسطبلاته داخل الأسوار. وللسروج نتوء من الأمام، ولا نتوء بها من الخلف. وهو كثيرًا ما يصيد الظباء والحمير الوحشية والنعام

---

[111] **وهو ما يعادل دولارين مكسيكيين إلى ثلاثين دولارًا [المحرر].**
[112] **وهي تُصنع في مراكش [المحرر].**

وحيوانًا يُستَشَفُّ من وصف الشباني أنه البقر الوحشي الأفريقي.[113] والحمار الوحشي سريع الحركة جدًا، وهو يرفس التراب والرمل في أعيُن مطارديه إذا دنوا منه. ولديهم أفضل ما في العالم من الكلاب السلوقية، التي لا يستخدمونها إلا في صيد الظباء،[114] إذ لا طاقة للكلاب على إدراك النعام. وكثيرًا ما خرج الشباني مع الملك للصيد، ويمكن لأي شخص أن يرافقه. وربما خرج فلم يعد إلا بعد ثلاثة أيام أو أربعة. وهو دائمًا ما يخرج بعد شروق الشمس. ويُقسّم كل ما يُقتل أثناء القنص على الغرباء وغيرهم من المرافقين الحاضرين، أما الحيوانات التي تؤسَر حية فتُرسل إلى قصر الملك. ومن عادته أن ييمم في خروجه للصيد شطر الصحراء، ولا يبدأ إلا على بُعد عشرة أميال من المدينة. وتوجد الظباء في قطعان يتراوح عدد رؤوسها بين الثلاثين والستين. ولم يَر [الشباني] قطّ ظبيًا ولا حمارًا وحشيًا ولا نعامة على انفراد، بل تكون في الأعم في أسراب كبيرة. ويُعين النعام ـ شأنه في ذلك شأن اللقالق ـ حراسًا موكلين بالمراقبة. وتقدر المسافة الكافية للتصويب بدقة بالقوس بثلاثين ياردة. ودائمًا ما يصوّب الملك من على صهوة جواده، وكذلك كثير من حاشيته، ويكون ذلك أحيانًا بالغدارات، ولكنه يكون في أكثر الأحوال بالأقواس. ويحمل الملك معه عددًا هائلًا من الخيام. وليس قرب تمبكتو أُسود ولا نمور ولا خنازير برية. وهم يلعبون الشطرنج والضامة (الطاولة)، ويبرعون فيهما أيما براعة. وليس لديهم أوراق لعب، ولكن لديهم بهلوانات ومشعوذون ومُقامقون[115] يبدو صوتهم وكأنه صادر من تحت آباطهم. وقد سُرَّ كثيرًا بموسيقاهم، التي عندهم منها أربعة وعشرين لونًا مختلفًا. ولديهم رقصات مختلفة الأنواع، وبعضها موغل في إباحيته.

---

[113] **وهو الأوداد. لوصف مفصل له انظر كتاب جاكسون مراكش، الفصل الخامس: الحيوان، ص 84 [المحرر].**

[114] **يفلت الغزال، أو الظبي، من الكلب السلوقي في بادئ الأمر، إلا أن الكلب السلوقي يتمكن منه بعد أن يركضا لما يقرب من الساعة [المحرر].**

[115] المقمقة ventriloquism هي التكلُّم من البطن أو أقصى الجوف، ويستخدم في العروض الترفيهية بأن يُغيّر المقامق (المتكلم من بطنه) من صوته بحيث يبدو كأنه ليس صادرًا منه (بل من دُمية مثلًا) [المترجم].

الوقت

وهم يقيسون الوقت[116] بالأيام والأسابيع والشهور القمرية والأعوام القمرية، لكن قلما عرف أحدهم عُمره على وجه التحقيق.

الدين

وليس عندهم معابد ولا كنائس ولا مساجد، ولا عبادة راتبة، ولا يوم ديني للراحة، ولكن لهم كل ثلاثة أشهُر عيدٌ عظيم يدوم يومين أو ثلاثة، وقد يدوم أسبوعًا في بعض الأحيان، وهم يقضونه في الأكل والشرب. وهو لا يعرف السبب، إلا أنه يظن أنه فيما يبدو احتفال بذكرى ميلاد الملك. وهو عطلة من العمل. وهم يؤمنون بكيانٍ أسمى وطبيعة أخرى للوجود، ولديهم أولياء ورجال يضعونهم موضع التقديس. وبعض هؤلاء سحرة، وبعضهم معاتيه، كما هو الحال في الساحل البربري وفي تركيا. ورغم كثرة الأطباء فهم يَنشُدون الشفاء الناجز من المرض في دعوات الأولياء، وخاصة في آلام المفاصل (الروماتزم). وتُستثار حالة الانجذاب عند الولي بالموسيقى، فيبوح في حال الإلهام (بمشيئة من ولي راحل ما، هو عادة سيدي محمد سيف) بما يجب نحره من الأنعام كي يُشفى العليل: ديك أحمر، أن ديك أحمر، أم دجاجة، أم نعامة، أم ظبي، أم عنزة. فيُنحر الحيوان على أثر ذلك بحضور المريض ويُنتَف، ويُحفظ الدم والريش والعظام في علبة ويُحمل إلى بقعة معزولة، حيث يُدفَن وتوضع عليه علامة بأنه قربان. ولا يضاف الملح ولا التوابل إلى اللحم، غير أنهم يستخدمون البخور يُستخدم قبل إعداده. ويأكل المريض من اللحم قدر ما يستطيع، ويشاركه كل الحاضرين. ويجب أن يكون الأرز ـ أو غيره مما يُقدَّم مع اللحم ـ مُتَبَرَّعًا به من آخرين، ليسوا من أهل البيت أو الأسرة، وعلى كل من يتبرع أن يدعو للمريض.

الأمراض

تنتُج عن رياح الصحراء علل في المعدة تُداوَى بالعقاقير. وعندهم جراحون وأطباء مكرسون لهذا العمل. وتُعالج لدغة الثعبان بمصِّ الجرح. ويكثر عندهم الجيلوب [لعله الهرش، الذي يسمى في الساحل البربري بالحك]، الذي يُتعاطَى من أجله الكبريت الذي يُجلب من

---

[116] **الساعة مصطلح غير مُعين تحديدًا، وهي كقولنا "مدة لا بأس بها"، فهي تتراوح بين نصف ساعة على المزولة وست ساعات، ويُحدد الفرق بعبارة "واحد ساعة كبير" (ساعة طويلة) و"واحد ساعة صغير" (ساعة قصيرة)، وكذلك بمدّ آخر مقطع من الكلمة الأخيرة [المحرر].**

تارودنت في السوس باطنيًا وظاهريًا. وأحيانًا ما يؤدي هذا الداء إلى الوفاة. كما تصيبهم كذلك الحميات والبرداء[117]. وكثيرًا ما يكون الفصد ناجعًا، كما يصف الطبيب المسهلات والمقيئات. والفتوق منتشرة وخطيرة، ويندر أن تُشفى، وكثيرًا ما تؤدي إلى الوفاة. وهم يعالجون الاستسقاء بالبزل. ولم يحدث أن سمِع هناك عن الأمراض التناسلية. كما يشيع الصداع والسلّ. ويجمع الأطباء[118] الأعشاب ويستخدمونها في العلاج.

العادات والتقاليد

تُصبغ الأظافر وراحات الأيدي بحُمرة الحنّاء[119] التي تُزرع هناك. ويَشِم العرب أيديهم وأذرُعهم، أما أهل تمبكتو فلا يفعلون ذلك. وهؤلاء القوم زنوج حقيقيون، ويعلو وجوههم وسم باهت ينحدر من قِبَل العين. والوسم عند الفولان[120] أفقي، أما البمبارا[121] فيتسمون بندبة واسعة تمتد من الجبهة إلى الذقن. وتُرفع القبور فوق الموتى، وهم يُدفنون في كفن وتابوت، وينوح الأهل على قبورهم ويلهجون برثاء الميت. ويختلط الرجال والنساء في المجتمع، ويخرجون معًا في الزيارات في حرية كتلك التي في أوروبا. وهم ينامون على حشايا ذات ملاءات قطنية ولحاف، وينام المتزوجون على سريرين منفصلين في حجرة واحدة. وهم يكثرون من الاغتسال، وإلا أنتنت روائح أجسادهم. وهم يستخدمون المناشف المجلبة من الهند. وهم يبسطون حُصُرهم وقت العَشاء ويجلسون عليها كما هو الحال في الساحل البربري. وهم يُفرطون في التدخين، إلا أن التبغ شحيح، وهو خير سلعة للتجارة. والتسمم منتشر، وهم يستخرجون السم من أنياب الثعابين، لكن الأكثر شيوعًا ـ كما يقول ـ أنهم يستخرجونه من موضع في الجسد قرب الذيل، بعملية تشبه التقطير. وقد يأتي الشفاء إن أُخذ الدواء بعد السم مباشرة، ولكن هذا لا يحدث في جميع الأحوال، فلو أُرجئ المرء يومين أو ثلاثة فهو يموت حتمًا. والسم بطيء، وهو يسلّ البدن، فيصير من

---

[117] البرداء agues: الملاريا [المترجم]..

[118] يتمتع الأطباء بمعرفة فائقة وشاملة بخصائص الأعشاب والنبات [المحرر].

[119] تنجُم عن غلي عشب الحناء صبغة برتقالية اللون غامقة، تضعها النساء في الأغلب على أيديهن وأقدامهن. وهي تلطف من نفاذ رائحة العرق حيثما وُضعت، كما تُحدث شيئًا من الترطيب [المحرر].

[120] الفولان (الفولاني): من أكثر شعوب غرب أفريقيا عددًا. ينتشرون من السنغال غربًا إلى السودان شرقًا، وتسعون بالمائة منهم مسلمون [المترجم].

[121] البمبارا: هو شعب يستوطن غرب أفريقيا، وخاصة مالي (التي يمثلون معظم سكانها) وغينيا وبوركينا فاسو والسنغال، ولهم لغة خاصة بهم [المترجم].

جرائه شاحبًا سقيمًا. وهو يُحدث ألمًا مبرحًا في المعدة، ويفسد الشهية، ويؤدي إلى الهُزال، ويُردي في وقت يطول أو يقصر حسب قوة البنيان. ويعيش بعض أولئك الذين يبادرون بتناول الدواء بعد السم ثماني سنوات أو عشرًا، وإلا جلب السم الردى في ظرف أربعة أيام أو خمسة. ويوصي الأطباء بنوع من المقيئات لا يَعرف [الشباني] تركيبه.

الأمم المجاورة

ليس فيما بين تمبكتو والنيل عرب؛ فهم يعيشون على الجانب الآخر[122] وهم لا يخرجون سالمين إن غزوا أرض هؤلاء القوم؛ فهم كثرة، وهم يقدرون ـ بكل يسر ـ على إفناء أي جيش يحاول إزعاجهم. وجُلّ الأراضي ملكية خاصة. وقد أوتي الفولان جمالًا عظيمًا. أما البمبارا فذوو شفاه غليظة وأنوف مفلطحة. ويحظى ملك الفولان بإجلال بالغ في تمبكتو، ورعاياه مسلمون، لكنهم لا يختتنون،[123] ولا يجوز أن يُتخذ منهم عبيد في تمبكتو، غير أن العرب يتخطفون بناتهم ويبيعونهن للزواج لا للرق.

وتبلغ الفتيات مبلغ النساء في سن صغيرة جدًا، وقد يلدن وهن في العاشرة من العمر.

[122] **إلى الشمال من المدينة [المحرر].**

[123] **كل المسلمين الحقيقيين مختتنون، ولذا فغير المختتنين منهم متشبهون بالوثنيين [المحرر].**

الرحلة من تمبكتو إلى الهوسة

ارتحل الشباني ـ بعد أن قضى ثلاثة أعوام في تمبكتو ـ قاصدًا الهوسة، فعبر النهر الصغير القريب من الأسوار، ليبلغ النيل بعد ثلاثة أيام، في رحلة مر فيها ببلاد حسنة عامرة ذات زرع، ذات شجر كثير، ومنه نوع من شجر البلوط، الجوز الذي يحمله كبير الحجم[124]، وأفضل من نظيره الذي في الساحل البربري، الذي يُحمل إلى إسبانيا كهدايا. والسفر آمن تمامًا. وقد ركبوا في النيل مركبًا كبيرًا ذا سارية واحدة وشراع ومجاذيف، ولم يكن التيار سريعًا. ولأن الريح ـ وقت عودته ـ كانت مواتية، فقد كانت عودته بمثل سرعة ذهابه. وقد كان الماء شديد الحمرة وحلو المذاق[125]. واسم المكان الذي أقلعوا منه هو مشغيليا[126]، حيث توجد عبّارة، وفي الجهة المقابلة قرية. ولأن التيار كان بطيئًا وكانوا يُلقون مراسيهم كل ليلة، فقد استغرقت مسيرتهم مع التيار إلى الهوسة ثمانية أيام أو عشرة. كان على ظهر السفينة من الرجال عشرة أو اثنا عشر، كانوا يجذّفون كلما هدأت الريح أو كلما كانت معاكسة. وقد كانوا يوجهون السفينة مستخدمين مجذافًا؛ إذ لم تكن للسفينة دفة. وقد شاهد عددًا كبيرًا للغاية من المراكب مصعدة في النهر ونازلة فيه. وفي هذا القسم من النهر بين مشغيليا والهوسة مراكب أكثر مما بين رشيد والقاهرة في نيل مصر،[127] وعلى الضفتين قرى كثيرة للغاية. وهناك مراكب على شاكلة ما في تطوان وطنجة، غير أنها أكبر حجمًا، ومصنوعة من الألواح الخشبية ولها أضلاع كتلك التي في الساحل البربري. وهي تُجلفَط[128] بنوع من الصلصال الأحمر أو الطمي، عِوَضًا عن الزفت أو القار. ويُتَّخذ الشراع من الكتّان (لا من القطن) الذي يُجلب من الساحل البربري، ومصدره الأصلي هولندا، وهو مربع الشكل. وهم يجدّفون كالمغاربة، مع اتجاه التيار.

بين تمبكتو والهوسة طريق بري؛ غير أن التجار لا يسلكونه لارتفاع التكلفة، ويُقدِّر الشباني طوله بمسيرة خمسة أيام. ولا بد ـ إن سلكت هذا الطريق ـ أن تجتاز النهر قبل أن تبلغ الهوسة. وقد نزلوا بمرفإ الهوسة، الذي يبعد عن المدينة يومًا ونصف اليوم، وحُملت بضاعتهم من هذا المرفإ على الخيل والحمير والماشية. والسود يبغضون الإبل، ويقولون "على هذه الدواب نُحمَل إلى العبودية". كان البلد خصبًا ومزروعًا. ولديهم نبات ذو بقل يُدعى الملوخية، يصنعون

---

[124] **ويُعرف بالبلوط. ولجوز البلوط هذا قيمة كبيرة عند المسلمين، ويعدُّ ثمرًا ذا نفع كبير [المحرر].**
[125] **يُفهم هنا من كلمة "حلو" ـ التي يشير معناها حرفيًا في العربية إلى الحلاوة ـ أن الماء نقيٌّ وعذب [المحرر].**
[126] لم أستدل على البلد المقصود بهذا الاسم [المترجم].
[127] **انظر كتاب مراكش لجاكسون، صفحة 314، الطبعة الثانية أو الثالثة [المحرر].**
[128] الجلفطة caulking: هي عملية سد الشقوق بمادة كيميائية كتيمة كالقار وغيره [المترجم].

منه هُلامًا نباتيًا غليظ القوام[129]. ولم يُشق فيما بين تمبكتو والنيل طريق؛ فالأرض قرب النهر كثيرة المستنقعات. وقد سافر الشباني من تمبكتو إلى الهوسة في الجو الحار حين كان النيل مُترعًا، وهو نادرًا ما ينحسر إلى ما دون مستوى ضفتيه. ركب الخيل من تمبكتو إلى النهر، وبات ليلتين على الطريق في أكواخ الأهالي. ويترك أحد أعيان القرية كوخه لعابري السبيل ويُطعمهم، بينما يذهب هو إلى كوخ أحد أصدقائه، وفي الصباح يحصل على هدية رمزية مقابل ضيافته[130].

نهر النيل

يبلغ النيل الكبير[131] ـ مثله في ذلك كنيل مصر ـ أوج امتلائه في شهر أغسطس، فيفيض على بعض البقاع ذات الضفاف الخفيضة، ولا يجاوز ماء الفيضان منتصف الساق إلا نادرًا. ويكثر على الضفتين الغاب، الذي يتخذون منه الحُصر. وترعى الإبل والخراف والماعز والخيول على الضفتين، غير أنها تُنقل في زمن الفيضان إلى الأراضي المرتفعة. ويُغلَّف ظاهر جدران الأكواخ وباطنها بالخشب إلى ارتفاع نحو ثلاث أقدام، حمايةً لها من الماء. ويصير ماء الآبار أفضل ما يكون في أعقاب امتلاء النهر. ويستمر الفيضان نحو عشرة أيام، وتعتمد وفرة محصول الأرز على مساحة الأرض التي يغمرها الفيضان. وقد كان معلومًا عند الشباني منذ زمن أن النيل يصبُّ في البحر، أي البحر الملح أو المحيط الكبير. وعند مرفإ الهوسة ـ حيث حطّ رحاله ـ قرية عرض النهر عندها أكبر منه عند الموضع الذي أقلع منه، وهو أعرض عند "جني". ولم يرَ أي نهر يصب في النيل طوال رحلته. وهو يشبه نيل مصر إلى حد كبير؛ إذ تستقي منه البساتين والأراضي. وعرضه متفاوت، [فالشباني] يرى أنه في بعض المواضع أضيق من نهر التيمس في لندن، وهو في مواضع أخرى أعرض بكثير. وقد باتوا الليل في كوخ أحد الأهلين في الموضع الذي حطُّوا رحالهم فيه، ثم شدُّوا الرحال عند شروق الصباح إلى الهوسة، التي بلغوها

[129] بقلة الملوخية ـ التي تنمو قرب سلا والرباط ذات شكل مخروطي طويل، وطولها نحو بوصتان [المحرر].

[130] هذه عادة شائعة في الساحل البربري الغربي والجنوبي، فهم دائمًا ما يُخلون خيمة لعابري السبيل [المحرر].

[131] أو بالأحرى "النيل" Enneel، و"الـ" أداة التعريف، غير أنها إذا أُلحِقت بها كلمة تبدأ بحرف شفهي أخذت صوت ذلك الحرف. وقد وقع في هذا الخطأ كتاب نُشر مؤخرًا عنوانه "شذرات من الشعر العربي"، مؤلفه ج. د. كارلايل، أستاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج. ففي صفحة 53 نرى Abdalsalam بدلًا من Abdassalam، وفي صفحة 59 نجد Ebn Alrumi بدلًا من Ebn Arrumi، وفي صفحة 65 نجد Alnahurwany بدلًا من Annahurwany، إلخ إلخ [المحرر].

في اثنتي عشرة ساعة، مارّين بسهلٍ حسنٍ لا تلال فيه. والبلد مأهول بالسكان أكثر مما هو الحال بين تمبكتو والنيل. ويمكن إيجاد عبّارات في عدة قرى.

الهوسة

لم يعاينوا المدينة إلا حين اقتربوا منها مسيرة ساعة أو ساعة ونصف الساعة، وهي تقع في سهل. وموقع الهوسة إلى الجنوب الشرقي[132] من تمبكتو، وهي مدينة أكبر بكثير، تقارب مدينة لندن حجمًا. وقد عاش فيها عامين ولكنه لم يرَ كل ما فيها. وليس لها أسوار، والمنازل كمنازل تمبكتو، وهي تنتظم في أزِقَّة أو شوارع كتلك التي في فاس أو مراكش، عرضها يكفي لمرور جمل مُحمَّل. والقصر أكبر كثيرًا من ذلك الذي في تمبكتو، فمحيطه سبعة أميال أو ثمانية، وهو مُسَوَّر. وهو لا يتذكّر من بواباته إلا أربعة، غير أنها قد تكون أكثر من ذلك، وهو يقدِّر عدد حراس كل بوابة بنحو خمسين حارسًا. وهو في قسم من المدينة هو الأبعد عن النيل. ولون المنازل قاتم وأسقُفُها مستوية. وفي ظنه أن القاهرة أكبر من الهوسة بنحو الثلث. والشوارع أعرض من شوارع تمبكتو، والمنازل مبلّطة بنوع من الطَّفل مختلف الألوان، وليس من بين تلك الألوان البياض. وليس في هذه البلاد طبشور ولا كلس.

الحكومة

إذا كان للملك ذرية، خلفه أكبرهم إن كان ذكرًا عاقلًا رشيدًا، وإلا انتُخب أحد من سواهم. والناخبون هم نبلاء البلاط. فإن لم ينل الابن الأكبر استحسانًا فليسوا بملزمين بانتخابه. إلا أن له الأولوية، ويليه باقي الأبناء، إلا أنه من الواجب أن يُجمع المجلس على الاختيار، فإن لم يقع أحد من أهل بيت الملك موقع الخيرة عندهم، جاز لهم أن ينتخبوا واحدًا منهم. ويُعين الملك أعضاء المجلس، يصطفيهم لحكمتهم وحُسن سيرتهم، بغضّ النظر عن مراتبهم. وليس للشخص الذي يقع عليه الاختيار أن ينكُل عن هذا التفويض الملكي. ويتألف المجلس من عدة مئات. ويعيش المحافظ الذي يرأس الشرطة في قلب المدينة.

---

[132] **أو بالأحرى: إلى شرق الجنوب الشرقي [المحرر].**

القضاء

القضاء هنا شبيه جدًا بما في تمبكتو، إلا أن الملك شديد الاستبداد، وهو يقضي بما يستحسنه هو، رغم أنه يستشير مجلسه. ويصدر المحافظ الأحكام في المسائل الصغرى، أما القضايا ذات الشأن فهو يحيل أطرافها إلى الملك والمجلس، الذي يُعدُّ هو واحدًا من أعضائه. ولا يُستخدم التعذيب قطّ. ويعمل تحت إمرة المحافظ عدد كبير من ضباط الشرطة خارج حدود المدينة. وإذا وقعت سرقات، تقدّم المجني عليه إلى رئيس المقاطعة، وصار الأخير ملزمًا بالعثور على الجاني أو حبسه، وإلا وجب عليه أن يدفع تعويضًا عما وقع من خسائر[133].

العقارات

وعندهم صنف من الرجال يختصون بفضّ المنازعات المتعلقة بالأرض، وهذه الوظيفة وراثية. ويدفع المعتدي التعويض فضلًا عن أتعاب هؤلاء الموظفين. أما البريء فلا يدفع شيئًا. ويتولى هؤلاء الموظفون قياس الأرض عند شرائها. ويُستخدم نبات كالبصلة الكبيرة مَعلمًا للقياس، فإذا نُقلت من مكانها (وهو أمر لا يسهل فعله دون أن يُكتشف)، رُجِع إلى وثائق البيع التي بحوزة كل مالك. وهم يدوّنون المبلغ المدفوع، ومساحة الأرض وموقعها وحدودها، يُمليها البائع، وتُكتب بلغة البلاد وحروفها، وهي مختلفة كل الاختلاف عن العربية. وتستخدم الحروف ذاتها في تمبكتو. وهم يكتبون من اليمين إلى اليسار. وقد كانت الحروف[134] مجهولة تمامًا للشباني. ويرث أبناء الأب المتوفى من أملاك جدهم ما كان أبوهم ليرثه إن قُدِّر له أن يعيش بعد أبيه، وذلك رغم وجود ذرية آخرين للجد. وأحكام المواريث مثلها مثل تلك التي في تمبكتو.

ويستأجر أصحاب الضِياع الشاسعة ـ وهم كُثُر ـ وكلاء وموظفين. وهم يؤجرون الأرض، فيكون الإيجار في بعض الأحيان من المحصول ذاته، وفي أحيان أخرى من التبر والودع. وتؤجّر المنازل إيجارًا شهريًا. وقد كان [الشباني] يدفع أربعة دولارات مكسيكية في الشهر، مع أن الواحد من أهل البلد لا يدفع في المنزل ذاته إيجارًا فوق الدولارين. ويُعدُّ مَن دخله

[133] يُعمل بهذا القانون أيضًا في الساحل البربري الغربي، فإذا وقعت سرقة، أُلزمت المقاطعة التي وقعت فيها بضعف المبلغ، يستحق المجني عليه نصفه، ويودع النصف الآخر في بيت المال. ومن محاسن هذا القانون أنه قضى على السرقة قضاءً شبه مبرم. فإذا حدث أن وقع الجُرم بالفعل، نهضت همة كُلِّ من في المقاطعة لمعرفة السارق، ونادرًا ما يفشلون في ذلك. وقد أدى بهم الخوف من العقاب كذلك إلى المبالغة في الحذر عند قبول شخص بينهم، وإلى الإغراق في التحقُّق من شخص ومهنة كل من يقيم في بلادهم، ولا سيما الغرباء [المحرر].

[134] وهي على ما يبدو حروف قرطاجية قديمة [المحرر].

الشهري خمسة دولارات مكسيكية من الميسورين[135]، إلا أن من دخلهم الشهري ثلاثون أو أربعون ليسوا قلة.

العوائد

للملك ما قدره اثنان بالمائة من نتاج الأرض. وتأتي العوائد من ذات المصادر التي تأتي منها في تمبكتو، غير أنها أضخم بكثير. ولا يدفع التجار الأجانب شيئًا؛ إذ يرى أهل الهوسة أن من الواجب تشجيعهم. والعائد ـ فيما يُظن ـ هائل جدًا.

الجيش

لم يتمكن من تحديد عدد الجند تحديدًا دقيقًا، غير أنه قدّر أن الملك قادر على حشد ما بين سبعين ألف فارس وثمانين ألف فارس، ومائة ألف من المشاة. والخيول رديئة صغيرة الحجم، ما عدا قلة اختُصَّ بها الملك. وليست لديه بغال أصيلة السلالة. والأسلحة هي ذات الأسلحة التي في تمبكتو: البنادق، وهي ذات فتيل وتُصنع محليًا. وهم بارعون في الرمي بالرماح. والبارود كذلك يُصنع عندهم، ويُجلب الكبريت من فاس، وهم يصنعون الفحم النباتي، وفي ظنه أنهم يُحضّرون النتر[136] [137]. ولسهامهم ريش ونصال، والأقواس كلها مستعرضة وذات زناد. وتُصنع السهام ـ التي تسع الجعبة منها ما بين العشرين والأربعين ـ من الجلود، وتُعلق على الجانب الأيسر. ولا يخرج الملك بنفسه للقتال قط. وللجنود زي خاص، وهم مكشوفو الرؤوس، عدا الضباط فيعتمرون نوعًا من العمائم. وللجند قمصان من القطن الأبيض الخشن ونعال صفراء، أما نعال الضباط فهي حمراء، وعمائم بعضهم مزينة بالذهب. وهم يحملون بارودهم في صُرَّة من الجلد، ويلفُّون الفتيل ـ الذي يُتَّخذ من القطن ـ حول البندقية. وهم يضعون حجر القداحة والمشحذ[138] في صُرَّة، فضلًا عن فتائل احتياطية.

---

[135] **يكفي ما قيمته عشرة دولارات من الأرز لتغذية رجل كل يوم مدة اثني عشر شهرًا [المحرر].**

[136] النتر هو ملح نترات البوتاسيوم في صورته المعدنية، كان يستخدم في صناعة البارود [المترجم].

[137] **يُستخرج الملح الصخري والكبريت فيما يبدو من تارودانت في السوس، وهما وفيران هناك [المحرر].**

[138] كانت الأسلحة النارية القديمة تُشعل بالفتيل أو بالدارة، غير أن ذلك كان يستغرق وقتًا طويلًا لإعداد البندقية لإطلاق النار، وهو ما دفع صانعي الأسلحة إلى ابتكار القداحة لزيادة فاعلية السلاح الناري [المترجم].

التجارة

وهي كمثيلتها في تمبكتو، فدائمًا ما يستخدم التجار الأجانب الوكلاء أو الوسطاء في كلا البلدين ليحققوا الربح في التجارة. وينبغي أن يُقيم المرء حينًا من الوقت قبل أن يبدأ التجارة. ويُباع العاج بالناب الواحد. وقد اشترى واحدًا وزنه مائتا رطل بخمس دوقات (جنيه واحد وخمسة شلنات) وباعه في مراكش بخمس وعشرين دوقة للمائة رطل، ويبلغ ثمنه الآن[139] ستين دوقة.

وليس للملك أن يسترقّ أحدًا من رعيته. وهم يجلبون القطن من بنغالة[140]. وليس عندهم ملح، فهو لذلك يُجلب من مسافات بعيدة، وهو بالغ الندرة. وتروج السلع في الهوسة أكثر مما تروج في تمبكتو. وفي الهوسة تجار من تيمبو[141] وبورنو[142] ومشو[143] والهند، فالتجار الرحالة لا يُبالون بالمسافات. وقد سمع من أنباء تيمبو وغيرها من المدن العظيمة، وله أن يجزم ـ من واقع معرفته الشخصية ـ أنهم يجلبون بضائع الهند الشرقية. وأهم عائدات التجارة من الهوسة التبر والعاج والعبيد. ولأهل الهوسة عبيد من بورنو والبمبارا[144] وجني[145] وبني كلاب[146] وبني عاري، وهم في عامة الأحوال من الأسرى، غير أن كثيرًا منهم يُخطَفون صغارًا على يد قوم يتخذون من هذا الفعل مهنة لهم. والقوانين صارمة جدًا إزاء هذه الجريمة، ولذا فهي تتطلب مكرًا ودهاءً عظيمين، ولا يُدان بها أحد من ذوي الأملاك قط. يأخذ سارقو العبيد الأطفال من المدينة ليلًا، ويبيعونهم لأحد الفلاحين، فيبيعهم هذا بدوره إلى شخص ثالث، وهكذا دواليك من يد إلى يد، حتى يُحملوا خارج البلد. ولولا وجود هذا الفعل لقلّ وجود العبيد في أسواق الساحل البربري. ولا يكاد يُعرض في الساحل البربري عبد فوق الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. وقليل هم التجار الذين يجلبون إلى الهوسة أكثر من عبيدين أو ثلاثة في المرة الواحدة، لكن كثيرون جدًا هم التجار

[139] **سنة 1795 [المحرر].**

[140] **البنغال، أو الهند الشرقية [المحرر].**

[141] تقع تيمبو في غينيا الحالية، ويقطنها قوم مسلمون من الفولاني [المترجم].

[142] بورنو هي منطقة في الشمال الشرقي من نيجيريا الحالية، تقطنها كذلك أغلبية من المسلمين [المترجم].

[143] مشو هي بلدة على الضفة الغربية للنيل في شمال السودان، على بُعد نحو 60 كيلومترًا إلى الشمال من مدينة دنقلا، كانت ميناء مهمًا وسوقًا رائجة على النيل [المترجم].

[144] البمبارا: هم شعب من العرق الماندي، يستوطن اليوم جنوب مالي وغينيا وبوركينا فاسو والسنغال [المترجم].

[145] جني: هي مدينة في مالي الحالية، تُطل على نهر النيجر. كانت وثيقة الصلة بتمبكتو؛ إذ كان جانب كبير من التبادل التجاري مع تمبكتو بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر الميلاديين يمر عبر جني. تراجعت أهميتها التجارية بعد أن أسس البرتغاليون مراكز تجارية على سواحل أفريقيا الغربية [المترجم].

[146] **أو بالأحرى "بني الكلاب"، وهم يتصفون بالسرعة وقِصَر القامة، ولهم لغة خاصة بهم [المحرر].**

الذين يدأبون على جلبهم. وقد كان عبده من البمبارا، وكان قد جُلب إلى تمبكتو في سن مبكرة جدًا. وغالب العبيد ضعفاء العقول، إلا أن هذا كان ـ على نقيض ذلك ـ ذكيًا، وكان يفهم لغات عدة، ولا سيما العربية، وقد اشتراه ليكون مترجمًا، ولم يكن ليُباع في العلن بأكثر من عشرين دوقة، لكنه دفع فيه خمسين، وكان سيده شديد الممانعة في التخلي عنه. وقد اشترى في الهوسة جاريتين، ثمن كل منهما 15 دوقة.[147] وقد تضاعفت قيمة العبيد في الساحل البربري منذ ذلك الحين، وهو لا يعرف السعر الحالي[148] في تمبكتو. ولا يزيد عدد الجواري اللائي يُبعن هناك عن عشر في كل مائة من العبيد. والتاجر يحبسهن بعد شرائهن في حجرة خاصة، لكنهن لا يُكبلن بالأغلال، ويُوضع على الباب حارس، وتُجعل من يُوثق بها حارسة. ويتردد على الهوسة ـ لتجارتها العظيمة ـ أقوام من بمبارا وفولان وجني وبلدان الداخل.

وتتشابه الصناعة والزراعة مع مثيلاتها في تمبكتو.

المناخ

تهب الرياح الحارة من الشرق، والصيف هنا أشد حرًّا منه في مراكش، وهو أشدُّ حرًّا في تمبكتو عنه في الهوسة. وتهب الريح الرطبة من الغرب، والضباب كثيف في الصباح. وهو لم يرَ السماء تمطر يومًا في الهوسة طيلة عامين، فهو يقول إن المطر لا ينزل فيها قط. وهم لا يعرفون القحط. ويُجلب جانب كبير من مؤنهم من ضفاف النيل. والنهر حين يفيض لا يجاوز منتصف المسافة بين مجراه المعتاد وبين الهوسة. وفي بيوتهم آبار جيدة، ولكن ليس قرب المدينة نهر.

الحيوان

لم يرَ في الهوسة جِمالًا، ولكنه سمع عن وجودها. وهم يستخدمونها لجلب الذهب ويكسون قوائمها بالجلد وقايةً لها من الثعابين. وعندهم كلاب وقطط، ولكن ليس في بيوتهم عقارب ولا ثعابين. وينتشر القمل والبقّ والبراغيث بكثرة. ولم يرَ حيوانات برية ولا دجاجًا في محيط الهوسة.

---

[147] **وذلك نحو سنة 1790 مسيحية [المحرر].**

[148] **سنة 1795 [المحرر].**

الأمراض

يتفق الأطباء مع المريض في أمر العلاج. ولا أجر إن لم يتم الشفاء. والزكام والسعال هما أكثر الأمراض انتشارًا.

الدين

وكما هو الحال في تمبكتو، تشيع لدى الطبقات الفقيرة ـ كما في غالب البلدان ـ مفاهيم خرافية عن الأرواح، الطيب منها والخبيث، وهم يتطيرون بالأحلام، ولا سيما العبيد، الذين يعجز بعضهم عن الإمساك ببوله ليلًا لخوفه ـ في اعتقاده ـ من الأرواح. وكثيرًا ما يؤخذون على سبيل التجربة حين يشترونهم، فإذا وُجد فيهم هذا العيب نُقص من سعرهم قدر كبير. ومن تستحوذ عليه روح طيبة فهو في اعتقادهم محصن ولو من عشرة آلاف طلقة. ولا يُعاقب من أدين بجريمة إن وقر في قلب القاضي أن روحًا خبيثة قد مسّته! ولم يبلغه [أي الشباني] أن رجلًا ميسور الحال قد تعرَّض للمس.

الناس

تتباين بناهم، لكن أطول رجل رآه [الشباني] يومًا كان في الهوسة. ولأن المدينة كبيرة للغاية، فقد كان من النادر أن يتسنى له رؤية الملك كما كان في تمبكتو. وقد رآه مرتين فحسب في عامين، وكان ذلك في المحاكم فقط. وقد كان يميزه اتساع منخريه وحمرة عينيه ونعومة بشرته وحُسن سواد لونه وشدّة هذا السواد.

الملبس

وعمائمهم ـ كما في تمبكتو ـ من أجود الشاش الموصلي، وأكمام ثياب الجند ضيقة، أما أكمام التجار فهي فضفاضة. وسراويل الأولين قصيرة، أما سراويل الآخرين فطويلة. ويشبه الضباط في زيهم التجار، كلٌّ حسب حاله. والقفطان في الصيف من الحرير المجلوب من الهند. وخلافًا للحبلين اللذين يرتديهما ملك تمبكتو، فإن ملك الهوسة يرتدي وشاحين من الحرير، عرض كل منهما قدر ثلاثة أصابع، واحد على كل كاهل، وهما مطرزان بالذهب تطريزًا باذخًا. ويُعلق

خنجره في أحدهما، وسيفه - إن خرج راكبًا - في الآخر. وهو لا يرتدي الإجاصة الحريرية في عمامته كملك تمبكتو، ومقدم عمامته مطرز بالذهب.

المباني

والمنازل كمثيلاتها في تمبكتو، غير أن كثيرًا منها أكبر حجمًا. وليست عندهم طواحين هواء أو طواحين ماء، بل هي طواحين حجرية تديرها الخيول.

العادات

وهم لا ينحنون قط. ويُقبِّل الأدنى يد الأرفع شأنًا، أما النِدّ فيومئ له برأسه أو يصافحه ويسأله عن حاله. وتصنع النساء مثل ذلك.

وجُلُّهم أُمناء ومطبوعون على الخير، أما الطبقة الدنيا فاللصوصية من عاداتهم. وهم يبالغون في العناية بالأطفال لئلا يُسرقوا. ولا تدخل الثعابين الأرض المزروعة، فلا خطر منها على الدواب فيها. وأهل تمبكتو والهوسة متشابهون شكلًا وسلوكًا. وهم يُخصون الثيران والكباش والجِداء، ولكنهم لا يخصون الخيول قط. والوجبة الرئيسة عندهم هي وجبة العشاء. وهم لا يستخدمون في طهيهم آنية النحاس؛ فجميع آنيتهم من الفخار. ويُنشر العسس عند غروب الشمس في مختلف أنحاء المدينة، فيقبضون على كل من ارتابوا فيه أو لم يعرفوه. وعندهم قناديل تُنع من الخشب والورق، الذي يُجلب من فاس. ويقوم على خدمة ذوات الشأن من النساء عبدٌ حين يخرجن أو يزُرن أحدًا، وهي أمور يتمتعن فيها بقدر من الحرية يضاهي ما في أوروبا. وتمتطي النساء الخيل أو الحمير، وليس عندهم بغال. أما الرجال فأكثر شأنهم المشي؛ فهم أشدّاء ونادرًا ما يشعرون بالتعب، وهم يعزُون ذلك إلى أن أضلُعهم تزيد عن أضلُع الرجال البيض ضلعًا. وبعضهم يصنع خبزه بيده، والبعض الآخر يشتريه، كما هو الحال في إنجلترا. وهم يصنعون الخبز المخمَّر من الأُلليلا[149] والبشنة. ويقع سوق الماشية في ساحة مخصصة له داخل المدينة. والأثرياء كُثُر للغاية: بعضُهم أثرى بالوراثة، والبعض الآخر من التجارة. ويحتشد الفقراء كل صباح على أبواب الأثرياء، فيرسل السيد لهم طعامًا وأُرزًا وحليبًا وغير ذلك. ولكل يوم عندهم اسم. وهم يصنعون الغلايين التي يُدخنون بها، وأنابيبها من الخشب. وعندهم أغانٍ، يُغنَّى بعضُها بمصاحبة جوقة، وبعضها يُغنيه شخصان يُغنيان المقاطع الشعرية بالتناوب. وعندهم عيدٌ كلَّ

[149] **الدخن والذُرة الصفراء (الذُّرة الهندية) [المحرر].**

ثلاثة أشهُر كما في تمبكتو. وليس للملك إلا زوجة واحدة، لكن له من محظيات كثيرات. وتُعتبر من جواري ملكة الهوسة المُقرَّبات أسمى شأنًا من ملكة تمبكتو.

الذهب

تبعد الأرض التي يوجد فيها عن الهوسة نحو ستة عشر ميلًا. وهم يطرُقونها ليلًا، على جِمال يُغطُّون قوائمها وأخفافها وقايةً لها من الثعابين. وهم يأخذون معهم كيسًا من الرمل يُعلِّمون به المواضع التي تلمع بالذهب، وفي الصباح يجمعون ما في الموضع المُعلَّم ويحملونه إلى المُنقّين، فيفصلون منه الذهب مقابل مبلغ زهيد. وليس قُرب هذا الموضع جبال ولا أنهار، بل هو سهل بلا رمال، تربته بُنِّية داكنة. ويحق لأي إنسان أن يرتاده لينقِّب عن الذهب. وهم يبيعونه للتجار، الذين يدفعون للملك ضريبة زهيدة. وليس مقدار النتاج معروفًا على وجه التأكيد، وقد سمع أن البوشل[150] من التراب يُنتج ما قيمته اثنتا عشرة دوقة، أي ثلاثة جنيهات استرلينية، من الذهب الخالص. وهم يخرجون من الهوسة نحو الساعة الثانية عصرًا، فيصلون قرب غروب الشمس، ويعودون في اليوم التالي بعد أن يكونوا قد أمضوا الليل كله في التنقيب عن الذهب.

حدود الإمبراطورية

وهي شاسعة جدًا فيما وراء تيمبو، الواقعة على الجانب الشمالي من النيل. وتخضع أفنو[151] لسُلطان ملك الهوسة، وبذلك لا يجوز استرقاق أهلها. وتقع درفنيل قرب أفنو، وهذه الأخيرة على الجانب الشمالي من النهر، وهي إلى منبعه أقرب، والبُعد بينها وبين تمبكتو كبير. وليس على ضفاف النيل عرب. وفي تقديره أن محيط الإمبراطورية يبلغ مسيرة نحو خمسة وعشرين يومًا. وقد نمى إلى علمه أن غير ذلك كثير من المُدُن الكبيرة تتبعها، لكنه لا يذكر أسماءها.

---

[150] البوشل Bushel: هو مكيال بريطاني للأحجام الجافة للحبوب وغيرها. يعادل البوشل الواحد ثماني غالونات جافة، أي 36.368 لترًا [المترجم].

[151] أفنو Afnoo: اسم كان يطلق على منطقة شاسعة تمتد من كانو وخط الطول المار بها شرقًا، إلى تمبكتو وخط الطول المار بها غربًا، بمحاذاة الضفة الشمالية لنهر النيجر [المترجم].

والبلدان المتاخمة هي بمبارا وتيمبو وموشي وجني، وكلها مأهولة بالزنوج. وقد سمع عن برنو[152] [153]، التي توصف بأنها إمبراطورية عظيمة.

في الحادي والثلاثين من مارس سنة 1790، أدلى الشباني بمزيد من المعلومات بحضور اللورد رودون[154] [155] والسيد ستيوارت، والسيد ويدجوود[156]. كان السيد ويدجوود يُلقي السؤال، والسيد دودزورث يترجم. وفيما يلي جانب من المعلومات، مع إغفال ما دُوِّن منها آنفًا.

التجارة بين تمبكتو والهوسة رائجة جدًا. وتؤدي تمبكتو الجزية لملك الهوسة. وتستورد تمبكتو[157] التوابل والذُّرة والأصواف من الساحل البربري، وأقمشة الكتان من السواحل.

والحرف المكتوب كبير للغاية، يبلغ طوله نحو نصف بوصة. وتنقسم الإمبراطورية إلى أقاليم، والأقاليم إلى مقاطعات. ويُعين الملك حكامها جميعًا، غير أنه من العُرف أن يُقدَّم ابن الحاكم المتوفى.

وهم يستخدمون في صناعة الفخار عجلة، غير أنهم لا يصقلونه. وتدور العجلة حول محور مثبت في حفرة في الأرض، وفي أعلاها وأسفلها قطعتان من الخشب كطاولة الشاي، تُدار أسفلهما ـ وهي الأكبر حجمًا ـ بالقدم، بينما تُشكِّل العليا القِدر. وهم يضعون في الأعلى قطعة أكبر

---

[152] **بير نوح، أو بيرنوح، أي بلد نوح، التي يقول الأفارقة إنها مسقط رأس النبي نوح [المحرر].**

[153] ينفي السير جون غاردنر ويلكنسون في كتابه "عادات وتقاليد قدماء المصريين"، الصادر سنة 1878 (ج 3، ص 211)، أن يكون اسم "بيرنو" منطويًا على أية إشارة إلى النبي نوح، قائلًا إن هذا ليس إلا تشابهًا لفظيًا [المترجم].

[154] **وهو الآن ماركيز هاستنغز [المحرر].**

[155] اللورد رودون، أو فرانسيس إدوارد رودون-هاستينغز (1754 - 1826): هو سياسي وعسكري إنجليزي، ولد في أيرلندا إبان احتلال إنجلترا لها، وبها نشأ. التحق بالجيش البريطاني في السابعة عشرة من عمره، وانضم سنة 1774 إلى القوات البريطانية التي عبرت المحيط لقمع الثورة الأمريكية فأبلى بلاء حسنًا، ثم حارب جيوش الجمهورية الفرنسية الوليدة. خاض معترك السياسة كذلك، فكان عضوًا بمجلس العموم الأيرلندي، ثم عضوًا بمجلس الأعيان (اللوردات) البريطاني لثلاثة عقود، ثم صار قائدًا عامًا لجيش اسكتلندا سنة 1803، واختتم حياته السياسية بتوليه منصب حاكم عموم الهند في الفترة من 1813 إلى 1823 [المترجم].

[156] جوزايا ويدجوود Josiah Wedgewood (1730 - 1795) هو رجل أعمال وصناعة إنجليزي، كان من كبار صناع الأواني الخزفية، وانتُخب سنة 1883 لعضوية الجمعية الملكية لابتكاره جهازًا لقياس درجات الحرارة القاسية في أفران الخزف عُرف بالبايرومتر. كان في أواخر حياته من أشد أنصار إلغاء العبودية في إنجلترا [المترجم].

[157] **يُراجع كتاب جاكسون في وصف مراكش للمزيد من التفصيل حول واردات تمبكتو [المحرر].**

حجمًا إن أرادوا صنع قِدر كبيرة. وتُجفف القدور في الشمس أو يُحمى عليها في النار. ومناجم الحديد في الصحراء، ويشتري العرب الحديد قطعًا صغيرة، فيصهرونه وينقُّونه. وهم لا يجيدون سبك الحديد. وهم يستخدمون نار الفحم، ويصنعون المدافع والسيوف بالمطرقة والسندان. وتُصنع نصال سهامهم من الحديد، وفي القوس المستعرض ثلمٌ مخصص للسهم. ولا يستطيع الرجل أن يجذب القوس بذراعه فحسب، بل عندهم ما يشبه الرافعة. ويُصنع الجزء المقوس من الفولاذ الذي يُجلب من الساحل البربري ويُشكَّل في تمبكتو. وهم لا يصنعون الفولاذ بأنفسهم.

وهم يُطعِّمون من الجُدري، فيوضع الصديد في زبيبة ويؤكل. وعبارة "روكا دندوكا" هي من قبيل القَسَم، ومعناها "واللهِ". وهم يؤمنون بإله واحد، ويستخدمون بعد تناول طعامهم تعبير "الحمد لله" بالعربية[158].

وهم يؤمنون بخلود الروح، وبأن الرجال والنساء كليهما سيدخلون الجنة، وأنه ليس في الآخرة عقاب، بل يُعاقَب الخطاة في هذه الدنيا. وتتمثل السعادة بعد الموت في أن يدخل المرء في حضرة الله. وهم لا يختتنون. ويجوز أن يقع الطلاق أثناء حمل المرأة، ولكن لا يجوز لها أن تتزوج إلا بعد أن تضع حملها. وعندما تُطلَّق امرأة، يؤتى بالقوابل، وهن من النساء اللائي يتعلمن هذه المهنة منذ الصغر، فيفحصنها ليعرفن هل هي حبلى أم لا.

[158] **هذه هي صلاة المائدة عند العرب أو المسلمين بعد تناول اللحم. وصلاة المائدة قبل تناول اللحم مختصرة مثلها، وهي "بسم الله" [المحرر].**

من فاس إلى تمبكتو

لرحلتنا هذه سمة فريدة؛ فهي رحلة عربية، في بلاد تُعدُّ عُمقًا طبيعيًا للمغرب العربي، قام بالرحلة رجل عربي، ثم أملاها ـ بعد سنوات عدة ـ بلسان عربي، غير أنه أملاها في أوروبا، وهو بين قوم من الإنجليز، فتلقفها مترجم منهم صاغها بلغتهم. ضاع الأصل العربي من فوره؛ إذ كان منطوقًا لم يُكتب، أما ترجمته الإنجليزية فوصلت إلينا مطبوعة ضمن مجلد ضمَّ عدة رحلات وكتابات جغرافية عن المغرب العربي والغرب الإفريقي.

